نحن أبناء

الشَّمس والأَبَنُوس

نحن أبناء

الشَّمس والأبنوس

الهادى عجب الدور

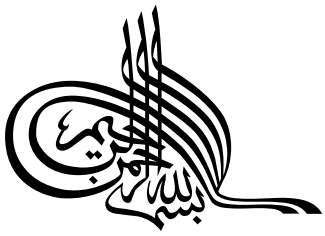
بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى أهلي الأعزّاء

و إلى أسرتي

وإلى عُشّاق الحرية

ومناضلي الهامش وشهداء الحرية والفكر

وشهداء ديسمبر..

وأنا وحبيبتي لوْنا ن بلونِ قوس قزح

(١)

الشمس القرمزية الراقدة وراء الغيوم السوداء المتخمة اختفت بسكون تتلوى بوجع الغربة، وانحناءات الرياح المعجونة برماد الأرق تلف الحقول الرخوة الجافة، وعلى الطرقات المهجورة تتناثر أوراق الخريف الصفراء القديمة يغسلها مطر الشتاء الممل، والسهول المحفورة بأنين العيون المعتقة بالدموع الرمادية تترنح من قساوة الرعشة، وصقيع الشمال البارد يضاجع بنات الأناشيد بقساوة وسفور، وفى قاع الحروف تتجمد الأغنية كالجليد ويظللها السهاد العنيد بشحوب وحزن عميق، كل شيئ هنا عهرته الرياح واهداب المنفى كل شيئ هنا يتبخر وينتحر بمواعيد ويتحرك بنكهة الدموع وحزن الشموع وهناك على الشاطئ البعيد تتذكرنى حبيبتى تتوسدُ الرمل تناديني كرنين الأجراس وقداس الميلاد والمسافة بيننا طويلة طويلة بعمق السنوات الضوئية وحروف

المطر الضبابية وعلى جنبى ترقد كل المواويل الخرساء تنهش دفاترى الرائعة وتشرد قصائدى بالنواح وقتامة المكان .

وأنا وحيد كجبال الصحراء فى قاع غربتى أقاوم وحل الأطياف ثمل بالأرق تحت وابل المطر صامد كصدى الموشحات وأغانى الحكامات فى دارفور البعيدة أرتّل أنشودتى على محراب الماضى بشغف وعناد واستنطق وحشة الغمام المهاجر فى مسامات روحى المجندلة بالتيارات الشاحبة وصمت قوافلى المرهقة بالسفر وأنين الليالى الباردة يرسمنى وعد خرافى بحجم التراجيديا ورحلة المواويل المبرقعة بالضباب ورائحة الجليد المعلق على أشجار الكستناء والصنوبر تخرجنى من نصوص قصائدى عارى القلب حافى الأحشاء خاوى اللحظات أقتات من زاد الذكريات الجميلة وأطياف اليقظة الرتيبة والتحف دموعى المالحة واحمل ذكرياتى فى إحشاء جينات فؤادى مسكون بهمسات حبيبتى على تخوم الأرض السمراء حيث تشرق الشمس من وراء الجبال الزرق والغابات الخضراء مسجون بقبلاتها السحرية كالشلالات تترنم فى وجهة الرياح وكالاغنيات تتألم بحلاوة الحرف الأبجدى ونظراتها الدافئة كرنفال من إفريقيا يتتبعنى بالغزل والدعابة فما احلى البكاء عند الغسق حينما اتذكر اننى عاشق كرائحة المطر فى سهول دارفور عاشق مثل رحلات الغجر عاشق مثل طيور

ليمبورغ لا تغنى الا حينما يشتد الشتاء ويحين قت السفر عاشق مثل التقاليد القديمة فى الصحراء البعيدة ومثل وشم القبيلة مكسو بعبق الابنوس ونكهة الحنة السودانية وتضاريس الجبال الزرق، وحبيبتى هنالك تنتظرنى على الشواطئ الدافئة كروعة تلال الرمال الرخوة يلفها الشوق والحياء فتناديني بغنج والتياع تطل على روحى المسافر بوهج الاغنيات تغمرنى برحيق القبلات المدهشة وتطوقنى باسراب الاحلام السعيدة وفتنازيا اللقاء وتنثر قصائدى البنفسجية على صدرها المليئ بسحر المكان وخرافة المشهد وروعة الفتنة الخلابة فما احلى البكاء على دلتا الشجن وجدلية الشوق العنيد يتلألئ على قامة حبيبتى وحبيبتى عصفورة بشكل رحيق الخيال تسلبنى وقار السكون فى المنفى البعيد وتشعلنى بركان من اجنحة القصائد وقربان على محراب مواعيدنا وانتمائنا للشمس والمطر وانا وحبيبتى اسطورتان مكونة لمملكة الشجن نتدفق على محطات الوداع ومرافئ الشعراء كالمطر دون مواعيد وانا وحبيبتى لونان بلون قوس قزح ولوحة من شلالات الاشواق تزين منارات الاناشيد برعشة القبلات الاولى فى دنيانا ومدن من الحنين مرصعة برذاذ دفئنا القديم ننسج بأنفاسنا عش الفرحة فما اتعس ليالى الغربة حينما اذوب على نوافير الذكريات وتتسرب لأعماقى فيثارة الامل وانا احفر فى خلايا روحى صورة حبيبتى

كالقمر تتموسق فى دمائي طقوس واناشيد برائحة المطر والياسمين وبريق اللؤلؤ وقبلات المراهقين بمقياس رسم تجهله الجغرافيا والسفن الغارغة فى امواج الحنين وانا فى قاع الغربة الباردة اتمرجح على صدى صهيل قصائدى العامرة بالسفر ورحيق الاطياف العذراء اتوارى خلف ارق العيون المغسولة ببخور الذكريات المخملية وعبق الدعابات الرقيقة ودفئ الانامل الذهبية وروحى المثقوبة بالالم ودموع الترحال ترسم على الثلج ارق الغربة الباردة وشحوب المكان وصورة مليون عصفور وسط وحل المواويل العنيدة يتمنى نسمات السهول الرائعة تهب باللهفة والاشواق والدعابة وتغرس فى كل صحراء شاحبة الف غابة مسقية بالحب والحنان محفوفة بشعاع الشمس الذهبية وزغاريد حبيبتى يتناثر منها الدلال السحرى وعنج الجمال السرى وروعة المشهد وحفاوة الموعد وهيبة اللقاء فما احلى قصتنا عندما نحلم وننسى نواح الرياح الباردة وشبح الاحزان وقتامة المكان

(٢)

ما زالت الذاكرة تختزن فى جوفها هدير بركان الشوق يترقرق كنهر الشموس البنفسجية تتوسد تلال الرمال السمراء المعطرة بحكايات الطفولة الرائعة واغنيات الصبايا البدوية

تتمرجح بنشوة ودعابة بحبور وانشراح على تخوم وادى الاراك الراقد على اكباد الوهاد البعيدة وتتنسم رائحة غصون الجزو المنعشة تتمدد على تراب سافل الصحراء كالحرير السمرقندى جميلة ورائعة كالموعد السرى تتلون فيه باحات الفروسية والغزل والقبلات برحيق التآملات وشبق المكان ودفئ العيون البدوية ترسم مليون لوحة بحجم رمال التلال وجروف الوادى وهمس الرياح وزغاريد الطيور مع بواكير الصباح تعرش عش القصائد برغوة الاحلام وقشطة الغمام وسجع الشجن وحنين الخيمة وسط الفريق تعانق نسمة العشيق والخيمة قصيدة منسوجة من وهج الفرح وعبق ليالى السمر مرسومة قناديل واكليل على محطات السفر موشمة بالرحيل ودموع الشوق ولهفة العناق

(٣)

وقفت بشحوب يظللها الضباب المالح تترنح مترعة بالضنى على تلال الجليد الهشة عارية الصدر كشجرة التفاح الموشمة بالحنين تفوح منها رائحة الغربة الباردة تلملم بقايا الزفرات المحطمة بالعزلة وقتامة مراجيح المكان ونهديها الاسطوريان الناعمان المحرومان دفئ المساءات المخملية يرتعشان من رغبه العناق الجامحة كالاقواس الحريرية تأخذ لون الاضواء البرونزية

المختنقة بالصبر والسكون المدفونة برماد الارق الثقيل وصدرها العالى الحالم بالفنتازيا وطلاسم اللهفة وروعة المواعيد المرهفة يتراقص كألامواج التى اختلط عليها شكل المد والجزر وحلماتها الملجمة بالصقيع والثلوج والمسكونة برهبة الموعد ودهشة المنظر اطلت برفق كالقناديل السرمدية المجهولة على تخوم السهاد الطويل تستنشق عبير الاحلام القديمة ورذاذ المطر الازرق المحفورة بفتنة المشهد والذكريات يتلألئ على اهداب رموشها العامرة بحفاوة اللقاء كصدى الاغنيات تترقق بالشجون ورحيق المواويل ونظراتها السحرية المعبقة بعطر الحنان والشوق تتمرجع رويدا رويدا خلف الشعاع الدافئ المهاجر بغنج على مسامات الحروف البنفسجية ووهج قوس قزح ونبض القبلات المدهشة المعروشة بسمفونيات الشبق ودفئ الاحضان الخرافية المنظر والغيوم الشاردة تختزن مشهد وجنتيها الورديتان ووجنتيها اسدلت ستارها بموج الارق وحموضة الاحزان وحاصرتها كخيمة الرحالة التائه بين انهار الجليد تهتز ببرود ولا يستقر لها مكان على ألسنة الوادى المسكونة بالخوف والعزلة والذبول غرقا بصرامة المشهد .

كل شيئ من حولها يتقلب كأهداب الرياح الرمادية الكسولة يتحرك مصدوما بالسكون الموحش وشلالات

الدموع السخينة منكمشا بلا رائحة مألوفة لنبضات القلب العامر بحكايات السفر والرحيل فى مسامات النظرات المحدقة وعيونها الآسرة الفاتنة اعتنقت البكاء المبرقع بالشهقات الخرساء وامتهنت السهاد المغبر بحوافر القصائد السامة كحروف الانين المقهورة والمتقوقعة بزبول وانكفاء على مسارات رياح الفصول العاقرة وتعرجات السنين الثملة بالانتظار وانفاس الايام المهشمة بالملل ورتابة الطقوس الفطيرة لم يعدهنالك موعد مليئ بالشجن والمواويل يتسرب فى خلايا روحها المثقوبة بصهيل الافكار الشاردة وزحمة الارق وتضاريس الليالى الحالكة كل شيئ هنا يترنح معها يرتجف من قساوة هذا البرود الرهيب .

ما اتعس شتاء الشمال البارد حينما يمتد فى عصب القصائد البلورية ويشل خفقات نهود الحكايات بالزكام والارتعاشات الطويلة ويرسم طلاسم الانحناءات موعد مفتوح للاحزان والتجاعيد وسجن لشعاع الفرح والزغاريد . وتحت سقف النجوم البعيدة المبلدة بالضباب

(٤)

أنتِ رائعة مثل وهج الفنتازيا المغسولة برحيق الشجن ودموع الاغانى البدوية، انت جميلة جميلة مثل محراب الشعراء

المنقوش بأريج مليون قبلة استوائية وسط الوحل تتدفق عسل بعطم الهوية وخرافة المشهد العميق، انت حلوة كرائحة مطر السافنا المدهش تعانق الاحلام الخفية وشلالات الذكريات الوردية وخفقات نسمات الارخبيل الدافئ فى جوف انشودتى تردد احلى اسم ونشيد بدعابة دعينى استوقفك بسكون رغم الزحام رويدا رويدا خلف شواطئ النيل البعيد واقرأ على شفتيك قداسة المكان واتبخر واذوب كتمثال الجليد امام عينيك الدافئة دفئ مشاعرى ودمائى واسألك من انت حين اذكرك فى سرى وانحناءات قوس قزح وحين استنشقك بلسم فى ضوء الصباح وحين اشتهيك كالمرآيا لاتملها نظراتى الطويلة واطل من حولك اتخفى بين اشرعة قواربى مدمنا منظر غابة التفاح فيك اى لون انت عندما تتلاشى الالوان فى عالم البنفسج الخلاب المحفور قصائد للابد تتلألئ كمراجيح دولة الياسمين وكاتدرائيات همس الاناشيد المسقية برعشة الشوق اى لغة انت فى كوكب الشموع والقبلات ودلتاوات انتمائنا للمطر الاستوائى وقاموس الدموع واى سماء انت حين تظللنا السماء بالنجوم وألق الاحلام ورنين رحلاتنا الطويلة بمقياس رسم يتحدى تضاريس الخريطة اى صوت انت فى سمفونيات حزنى وارقى وفرحى اه دعينى آتأملك دون مواعيد وبطاقات

هوية تحدد اقامة حروف ابجدية اغنياتى على منارات صدرك العالى الممشوق بالقوافى الفاتنة ومتعة الدهشة كسحر امبرطوريات الرومان العامرة بفاكهة غصونك ونوافير البخور واكسير شجونى وطلاسم أستسلامى على نكهة ميلاد شغفى الندى من انت حينما اقاتل الرياح والامواج بأسمك سرا وعلانية على باحات مدنى السرية والف حولك مشتعلا كالأسطورة الهندية وارسم صورتك على صدرى فى الليل الهادئ وانقش نبرات صوتك الرخيم وشم يحمل انتمائى لقبيلة مزاجك السريالى اه يا روحى المدفونة برماد الوداع ونوافير الشجن وغازات الرحيق على مد البصر والافق المعروش بغمزات الغمام وما زالت القصة طويلة بين ضلوعى تلهث على دربك الممرد بالترانيم والزغاريد واكاليل العناق كرحلات العصافير السرمدية فى قاع اوقانيوس اللحون العميقة وسجع ومض عيونك يتسرب على صفحات مهجتى المسكونة بشعاع الغزل الرقيق وخواطر الشوق الانيق اه ثم اه وانا مازلت طفلا يسبح على نهر انتمائاتك لنارالحروف وشبق القصائد ورعشة الاحلام القزحية وانا على دربك سأولد من جديد بدون اسم وهوية اخلط اسمى بأسمك واكتب عنوانى على كل المرافئ وفى فقاقيع الماء وزخات مطر الشتاء وفى رمال الصحراء وفى

شوارع المدن البعيدة وفى دمى ولعب الطفولة وفى احشاء الحروف البضة واستنطق ومض العيون المنسوجة بالارق وبالفتنة ومن حولك تظللنى الذكريات الرقيقة المعروشة باللهفة وعبق الحنان وبطيف المواويل الشجية كالشلالات الذهبية تتمرجح على فيثارة نبرات صوتك المارد وهمس شفتيك المليئة بغنج الكلام وسحر الالتياع وانا فى قاع الغربة الباردة احلتم بحوريات الاناشيد وانت احلى حورية تسبح على قلبى وقلبى وحيد كرذاذ المطر الشارد اتلوى بالوحشة والملل الرهيب وصهيل الاحلام يطاردنى ادفن جراحى فى لب جراحك واسقيها بدماء قصائدى البكرية وانفاس اشواقى الحبلى بصورتك الخرافية وتنساب فى روحى كمرح الصبا وتغاريد الاناشيد الحنينة

أكتبيني نشيداً للأحلام والإنسانية

(١)

غدا سيمتلئ نبض دمائنا بالزغاريد كأغنيات الصبايا المقدسية، وتشرق الشمس من تحت رموش الصبا بعناد وعنفوان، ويتقرهد نشيد النور والياسمين عبر الشعاع الدافئ، لنعانق أحلامنا كعصافير في سرب طويل، وتصحو من حولنا الحياة كترنيمة مليئة باللهفة والأشواق. ونظل نحلم بالمطر والأمان، نحلم بشموع الوطن تتراقص كمنارات أرواحنا البريئة وتضئ قاع جراحنا الكئيبة وسرداقات تأملاتنا، وتعطر سماوات أفراحنا النضرة بطعم الأمان والدعابات، ونظل نحلم بالدفء ونتذكر وميض النجوم محرابا للأمل وقبلات برعشة الشجن، ومزاحا وأهازيج بزغرودة الوطن، ونظل نحلم برائحة الخريف في أفريقيا ورونق الأرض السمراء ومخاض السهول الخضراء وعناد الليالي، تلك هي موسيقى الغسق وأجمل تحفة ليوم غد.

وسنظل نحلم حتى غدا، حتى تمطر سحب الرحيق، فننسى العتاب وننسى هراوات العذاب، وسنظل نكتب عنوان الشمس على شفاه جراحنا وعلى غمزات حبيباتنا، وعلى بريق أحلامنا، وعلى همسات صغارنا وعلى قمة انتماؤنا، وسنظل نحلم، ولن ننسى أنشودة الرعود والمطر على مقلة الخريطة التي وهبناها أرواحنا وقصائد النيل، وسنظل نحلم إلى آخر قطرة من المستحيلات حتى نرى شمس التضحيات جهرة كالأهرامات الفرعونية والآثار البابلية وننسى تراجيديا المنفى داخل الوطن، داخل تابوت الظلام، داخل قبو السلطان.

(٢)

عندما كنا عمالقة يوما ما ندير عجلة التاريخ، لم نشتهي اغتصاب الشمس الرهيبة ولا بنات القبيلة، ولم نختبئ كالخنافس بين أكوام الأشياء، وثقوب الحيطان العميقة، ولم نشته أن نرث مهنة السجان، هذه هي سيرة النيل بفروعه ودموعه لا تحتاج لهزائم ملفقة وشهادات ميلاد موثقة لنثبت بها ما ورثناه الآن، ونحن أنصاف أحياء وطيوف أموات والى جانبنا نخلات العراق وقصور هارون الرشيد الفسيحة. هذه قصتنا العرجاء، لكن عندما تذبل في دنيانا أنوار المدينة، وعندما تتحطم في مسامات أعماقنا أشرعة السفينة، لابد للنيل أن يحفظ

في جوفه لون القمر، وحزن المرايا، ودموع التخوم، كي تتمدد بالرحابة والتألق المهيب، وكي تتجدد بالفرح والشجون، ولن يمل احد ولن يكل احد، ونحن ما زلنا عمالقة بذكرياتنا الجميلة بأحلامنا الكبيرة حتى لو لم يبق شيء على أهداب شمسنا التي عشقناها على ربوع الخريطة وأذرع الأيام الرخوة المنسوجة بالفرح وعبق السلام.

(٣)

رغم بكائنا الطويل رغم شكلنا المستحيل، قد تمتد أجنحة المرايا السحرية، عبر الابتسامات العامرة، وعلى بهوها نتفقد أنين أمنياتنا الخجولة وأحلام الطفولة وأنشودتنا المكسورة وحديقتنا المهجورة، ونحلم بالعودة لأجمل العهود الطوباوية، ويعود معنا نبض الوطن كهديل الحمام على ساحات المسجد الأموي، وفوق الشلالات الاستوائية البعيدة، لتصفو دنيا الحيارى الذين ثكلتهم رياح الاولغاركية والدمينون وحوافر الجياد اللعينة على صدر الأرض السمراء.

(٤)

الليل المحدودب بالأرق الأزرق يحمل رفاة أحلامنا الذهبية، والنهار المسجوع بالزحام يلملم بقايا حطامنا بالأذية، وأجنحة عشقنا الجميلة تمتد كالسراب والخرافة، والشموس

القديمة تتناثر في لهيب دمائنا كالرعود، وقطارات الوعود ونظل نرتدي دموع اليراعات الحزينة. وقلوبنا تمتطي أجنحة الذكريات العتيدة ولهاث النجوم المرصعة بالحنين ودفء الكلام، ونظل نحلم حتى نغفو كعصفور أرهقته ثرثرة الرياح. وسنظل نحلم ونبحث عنك يا وطنا في تجاعيد البرق، وفي رمال الصحراء، وفي حروف الورود، وعروش الياسمين، وفي فقاقيع الماء، وفي شقشقة الأطياف، وفي شرفات المساء، وفي أغنيات الصبايا الرائعات.

سنظل نحلم يا وطني. يا أحلى سر مقدس. يا أروع دفء في مسامات حزننا، وأشواقنا، وانتمائنا للحب، والمطر، وجوهر الإنسان.

نحن والْقاع

الصورة الأولى

سمعناها في شقشقة العصافير، وشعاع الصباح، كالخرافة العنيدة والأساطير القدسية البعيدة. سمعناها في أمواج البحر الهادرة بشجي وفتون. سمعناها في حفيف الشجر، وفي جوف دموع الشعراء، وفي عبق الزغاريد القرمزية المنقوشة تمثالا على مسامات قوس قزح، وفي أحلامنا السرمدية.

سمعناها في أنغام الوتر، وقيثارة الصباح، وفي رعشة الانتماء الكبيرة. هي وطن مليء بالأشجان البضة والدعابات الرقيقة والألحان الدافئة والأحزان الغامضة والدموع الرمادية والشموع الباردة والرأفة والحنان. لمحناها في الأفق البعيد كالقداس والابتهالات العميقة. سمعناها في تضاريس الأحلام النبيلة ترتدي فستانا من أغنيات وأناشيد وقبلات وتأملات بلون فرحتنا وبكائنا المر.

سألنا عنها أرواح أجدادنا، ودموع أحفادنا، وأحلام أندادنا،

ونبضات قلوب أهل بلادنا. سألنا عنها بعشق وفتون كي لا نبكي على ظلالها وحيدين، تثكلنا في جوفها بنات الأناشيد وتنحتنا على محياها نافورة للرياحين والمطر. قالوا من هي أيها الخرافيون المحزونون؟ فبكيناها حتى شممنا رائحتها عند شروقها، فأدركنا جميعا أننا نعشق الشمس كما هي، لا نحتاج لجنرال لئيم، ولا لأئمة جدد يحبسون أنفاس الخريطة، ويعهرون كل حروف الأبجدية بسفور ويمزقون كبد الحقيقة. سمعناها كما هي، فمن هي؟

الصورة الأخرى

مدينة الذكريات تجري في دمائنا سرا بلا خنجر ولا بارود، تشتهي بنات الرياح والمطر والعناق وطقوس جغرافيا الشجون ولغة العيون دون عتاب. وعندما كنا صغارا، استمتعنا بجراحنا لأننا نحس بأننا نتألم، وكلما تألمنا أحسسنا أننا موجودون، وفي أعماقنا تلاشت شموع للدفء وبهجة المكان، وتفجرت ينابيع للدموع في قاع أرواحنا الصابرة، وتحت وسادة شمسنا البكر الافتراضية ولد الشعراء بدمائهم وشقائهم، لترقص ورائهم كل المدن الحزينة شلالات من التياع وجنون، تهادن نبضات أرواحنا ولذة الأحلام وقناديل المكان.

وأنا وأصحابي ملوك للعشق، ورحيق للأبجدية الأولى نثق

في رائحة المطر دون شروط وهوية، لنكتب أنشودة الزحام على محراب قصائدنا العجيبة، لنعلن دولة الياسمين العجيبة على باحات حكاياتنا القديمة، ونولد من جديد قصة ونشيدا للمجد والأحلام وجزيرة بطعم الدفء ولؤلؤ الكلام.

الصورة الحزينة

كنا يوما ما نحن والشمس والمطر، نحن والناموس والبقر، نحن والسماء وأنياب الدهر، نحن والجنرال والقدر، نترسب في قاع الخريطة لتخترقنا كل الأحلام المقرفة. نكون أئمة مرة بلغة الجبابرة العظام، ومرة أخرى نكون أشياء مبهمة فوق المستحيلات. نبكي ليبكي معنا كل اللئام والأغبياء، ونضحك لنجبر كل الباكين على الانحناء. فمن نحن يا ترى؟

الصورة المجهولة

كل الدفاتر لم تعد تسعنا، وكل سجلات المدن لم تعد تثق فينا، وكل السفن والمراكب تشتهينا لنسافر معها بعيدا بعيدا. إلى أين؟ لا ندري نحن وربباننا. غير أننا جياع مسكونون بالحزن العميق والألم. لاجئون بحجم أحزاننا، بلون أوطاننا، بهمس إنساننا، تظللنا خيام الملاجئ، ورياح الشتاء، ولهيب الصيف الحارق طول الحياة. فمن نحن يا ترى؟

إيقاعات يومٍ على الرِّمال

لقد كنت أنا الابن الخامس فى إخوتى الثمانية من هم ستة أولاد وبنتان لقد توفيت أختى البنت التى تلى أخي الأكبر أي البكر فقط سمعت بها من أبي ووالدتي ولم أرها قط فى حياتى ولا توجد لها صورة، كنت أذكر اسمها دائما وكلما لمحت امرأة اسأل امي هل أختى تشبه هذه المرأة؟ . وكنت كثير الإلحاح والاستكشاف، امى لم تفارق خيالى يوما ما فهى حنونة جدا كنا نلتف حولها نسمع لها قبل النوم وايضا فى الصباح الباكر قبل ان نتناول شاى الحليب صباحا وهى تترنم بشكل وبهمهمة لقد منحتنا شلالات الاناشيد وسقتنا ترنيمة النور والاحلام وكتبت على جباها انتم ابنائى الرائعون الملهمون .

وطبعا انا بطبعى لقد كنت هادئا كثيرا فى حياتى، لا احب الشجار مع رفاقى، كنت استمتع بالأحاجى والقصص الخرافية، واحفظ منها كثيرا، وكنت اجمع رفاقى حولى ونتسامر بها فى الليالى الدافئة تحت ضوء القمر ومنظر النجوم التى تطرز

السماء الصافية، نعم لن انسى اننى ولدت هنالك وراء الغيوم بعيدا بعيدا بين السنة الرياح الرخوة وظلال اشجار المانجو الحنينة حيث ترقد بلدتى مليط بشمال اقليم دارفور واشعة الشمس الدافئة تتسرب على صدر بلدتى الجميلة الخلابة المحاطة بالتلال الرملية الساحرة والمسيجة بشكل طبيعى بالسلاسل الجبلية الزرقاء الرائعة والمطرزة بالوديان الموسمية الرملية الحالمة وعلى اطرافها تتناثر الاكواخ القديمة الهادئة كـالاهرامات الفرعونية تحفها اشجار النخيل المثمرة ومزارع الذرة الواسعة وشجيرات الصمغ الشوكية والفواكهة البرية الحامضة، وفى الافق ترفرف الطيور البيضاء الجميلة فى اسراب خرافية متواصله لا تنقطع على مد البصر عبر التلال الرميلة والسلاسل الجبلية المتعرجة .

وفى موسم الخريف تحمل النسمات الهادئة رائحة مطر السافنا كعطر الاميرات الاسطوريات، وانا ورفاقى الصغار نغنى انشودة الشكر والامل المعطرة بالاحلام والأمان الطوباوى، نلعب تحت زخات المطر الدافئ دفئ طفولتنا البريئة نستنشق النسمات الرقيقة المنعشة، وننسج الشبكات الصغيرة للصيد المصنوعة من سبيب الخيل التى ترعى فى اعلى جرف الوادى، انا ورفاقى نتسكع بأستمتاع نصطاد الحمام البرى وعصافير

الزرزور والطيور المهاجرة وسط برك الماء المتقطعة على احشاء الوادى ونتسلق الاشجار المثمرة، وخلف جروف الوادى البعيدة ينساب صوت النسوة القرويات يترنمن باحلى الاغانى الريفية وعند الظهيرة تسير قوافل البدو تشق الوادى محملة بالاغراض والامتعة نستوقفهم بشكل فضولى نسألهم عن اسمائهم وعن اسماء الابل والجمال التى تسير فى طوابير وكم ثمن البضائع؟

ولماذا لا يرتدون البناطلين؟ . ولماذا يلفون وجوهم بالعمامة بشكل مختلف عن بقية الناس؟.

نتبعهم حتى يختفو من عيوننا، وعند المساء تنحدر الشمس رويدا ريدا قبل المغيب ويكون ظلنا اطول من قامتنا نجرى لنلحق به خلف الاشجار لنجد انفسنا فى حالة عبثية غير منتهية ومن ثم نتقفى اثار الارانب البرية والغزلان وراء الاشجار والمتشابكة، وثم نعود عند المساء تجاه البلدة محاذاة لجروف الوادى لنحضر احتفال النسوة يوزعن الطعام البلدى ويتراقصن وينشدن الاغانى هكذا :

يا قلبى المسافر فى شعاع قوس قزح

تعال وانسج وشاح لحبيبى الغائب

تعال واكتب انشودة الأحلام بحنان
تعال وارسم فى قلبى الوشم الخرافى
تعال اوقد شمعة السلام

ونحن نقف فى طابور متعرج نتراقص بمزاح وفرح نقلد اغنيات النسوة وندرب انفسنا على الرقص الرجولى وسط طابور النساء فى حلبه الرقص ونحن ما زلنا صغار فى مشهد جذاب مشحون بالحيوية والدعابة والمرونة وعدم الصرامة ثم نواصل نقلد اغنيات النسوة بحماسة ورغبة ونتفاعل مع حرارة الانشودة ونرد:

يا أمى العزيزة لك مليون سلام
يا نجمة السماء اللماعة لك اجمل وسام
يا قطرة الندى الأبدية
اسقينا أحلى رحيق الأحلام
يا أمى العظيمة
علمينا كيف نكتب أغنياتنا بعطر الكلام

و الشمس تدنو رويدا رويدا نحو المغيب ويحل الظلام . وعلى أطراف البلدة، من وراء الحظائر البلدية نسمع الشياه وشقشقة العصافير بأستعجال ثم نعود نركض نحو البلدة بعد

ما نحس بالجوع يسخن بطوننا لنهم بنتاول وجبة العشاء ونتأهب بعد العشاء لنتلتقى فى ساحات البلدة الرئيسية لنتسامر ونقيم مباريات الشعر والركض فى الظلام والبحث عن اشياء بمثابة الكنز نقوم بقذفها بعيدا ونتوزع للبحث عنها ونقسم انفسنا فريقين كل قسم يحب ان ينجح قبل الفريق الاخر ونصطف فى حلبة نغنى ونرقص ونحكى الفكاهة حتى يخلد اهل البلدة للنوم ثم نعود بهدوء ليبدأ يوم اخر مليئ بالحيوية والنشاط الحركه والمغامرة الممتعه .

رمْشة مِن الماضي

فى الصباح الباكر ببلدتى الجميلة مليط بشمال دارفور المغسولة بالفرح وبخور القصائد، تصيح الديوك البلدية ببداية بزوغ فجر يوم جديد مليئ السرور والروعة حيث يتحرك اهل البلدة بنشاط وحيوية، اذ ان الاهالى يتحركون نحو جروف الوادى لتفقد مزارعهم خاصة مزارع الذرة التى يكثر الاهتمام بها لانها الغذاء الرئيسى للسكان علما ان بان هنالك مزارع للبصل والبامية والطمام ومعظم الخضروات والفواكه فى اسفل الوادى.

وأنا أنهض مبكرا كى أساعد أخى الأكبر فى فتح حظيرة الشياه ليحلب لبن الأغنام واحدة تلو الأخرى وبعد الانتهاء من عملية الحلب ومساعدة الحملان الصغيرة على الرضاعة، ثم نقدموا للشياه العشب والماء الذى نجهزه لها من الليل .

وفى الناحية الأخرى للمنزل يطل المطبخ المتواضع المبنى من الحطب والمسيج والمعروش ببقايا عيدان وقصب الذرة وحبال السعف المصنوعة من جريد شجر النخيل حيث تجلس والدتى

توقد الفحم النباتى واحيانا نار حطب شجر السدر وشجر الكتر الجبلى لتقوم بغلى الحليب وتحضير الشاى، اذ اننى كنت لا اعرف الغاز الخاص بالطهى او الطبخ بالكهرباء والطاقة الشمسية وقتها حتى سافر ابى لليبيا البلد النفطى الغنى المجاور لأقليم دارفور حيث احضر معه بوتوغاز صغير للطهى ولا نستعمله كثيرا الا فى حالات الاستعجال او الطوارئ ، وكنت احب الحليب الذى له نكهة الحريق خاصة المغلى فى الاوانى الفخارية وكنت لا اكتفى بكوب واحد بل اكثر منه .

و اضافة لغاز الطهى قد احضر ابى معه راديو متوسط الحجم ماركة ناشونال يابانى الصنع يبدو لى وقد كان يسمع به اخى الكبير اذاعة ام درمان وهئية الاذاعة البريطانية بى بى سى وقد احضر ابى معه ايضا جهاز تلفزيون على ما اعتقد انه مقاس ٢١ بوصة شاشة بيضاء غير ملونة ماركة جى فى سى وقد حاول اخى ورفاقه وخالى وابناء اعمامى واصدقائهم تشغيله ببطاريات احدى الشاحنات التى تبرع بها ابن خالى سلفية للتشغيل فقط .

. وقد تجمهر كل اطفال الحى والنساء والشيوخ والاصحاء والمعاقين حتى العميانين لانه حدث هام كى يشاهدوا ويسمعوا التلفزيون وقتها وقد كنت انا ورفاقى الصغار نقف على الباب نخبر كل من نراه بالحدث ونجرى بفرح ونصيح إنه سيتكلم

.... سيتكلم.... سيتكلم..... سيتكلم .... سيغنى .....
سيغنى بعد قليل وان داخله ناس يغنوا حسب ما سمعنا وكنا نجرى وننظر للتلفزيون هل تكلم ام لا لكن اشارات الارسال غير موجودة ولا توجد شبكه ثم نخرج مسرعين للخارج لنخبر اى انسان ان التلفزيون سيتكلم بعد قيليل، ويبدو ان الجميع ينتظروا فى تلك الليلة لكن الارسال كان مشوش جدا جدا والجميع يبحلقون مندهشون للصورة المنملة التى تتحدث رغم رداة الارسال فانهم مستمتعون فى قمة الدهشة والتعجب، هذه جزء من قصة البتوغاز والتلفزيون .

حيث مازال الوقت صباحا فكل افراد الاسرة يجلسون لتناول الشاى مع الحليب علما باننا نحن الاطفال الصغار لا يسمح لنا بتناول الشاى الصافى او القهوة فقط نشرب الحليب وبعض قطع الزلابية ورقائق الكسرى المجففة المصنوعة من الذرة البلدية واحيانا دقيق القمح المستورد، وبعد تناول الشاى والفطور انطلق انا وابناء عمى وابناء الجيران ونقوم بجمع كل الاغنام والماعز وبعض البقرات ونجهز الحمير والطعام والسكر والملح وعيدان الكبريت لايقاد النار عند الحوجة لها وننطلق نحو الوادى محاذاة للجبال نسوق قطيع الاغنام وفى هذه الرحلة لم ننسى ان نصطحب معنا كلب ابن الجيران لاننا سنحتاج للكلب عند الظهيرة وقت قيلولة الارانب والغزلان

عندما تسخن حرارة الشمس لان الصيد من هواية الصبية وقتها، اضافة لصيد الطيور خاصة عندما نقترب من السهول والاودية الصغيرة المنحدرة من الجبال حيث تبيض طيور الحبارى فننسج لها شرك اذ اننا نقوم بدفن احدنا نحن الاطفال فى عش طائر الحبارى الكبيرة ونغطيه بالعشب حول العش ونغارد نترقب وبسرعة فائقة تعود الحبارى ليقوم الطفل المختبئ فى العش بالقبض على الحبارى ونسرع نحو رفيقنا لاننا نخاف ان تكون الحبارى من ذات الوزن الثقيل وتطير برفيقنا . وعندما ننجح بالصيد نقف بسرور وفرح يغنى احدنا ويردد معه الصبية بشكل جميل وجذاب :

الخريف هدية السماء لنا

والمطر عطرنا الابدى

الاغنيات روحنا التى تنبض بالحنان

و الحب هو غذائنا المملوح بنسمة الطبيعة

و السهول الجميلة سجادة احلامنا الدافئة

غدا سنكبر وسنكون اباء واجداد

الحياة رائعة يا رفاق

نحن هنا... نحن هنا ... نحن هنا..

ونستمر نغنى ونرقص نسير فى رمال الوادى نسير ببطء وتسكع نقطف الثمار ونملأ جيوبنا ونتجه نحو الجبل نصعد لأعلى رويدا رويدا لتبدو مناظر الارض من اعلى بعيدة وجميلة خضراء والاودية والشجيرات متدلية نحو الاسفل وتبدو مناظر الشياه البيضاء نتخيلها صغير مثل الفراشات ومنظر السحب على السماء شيئ رائع فوق الخيال يا لها من لحظات جميلة لا تصدق ...

والنسمات تهب رطبة وناعمة ومنعشة وتبدأ قطرات المطر تتساقط ونفكر بالنزول من الجبل لجمع الشياه والحمير والامتعة والبقرات وعبور ضفة الوادى قبل ان يمتلئ بالماء ويحجزنا الفيضان وراء الضفة بعيدا من البلدة .

عنوانٌ مجْهول

فى الأيام القديمة البعيدة كبعد المكان تلفُّنى ذكرياتى بلا وشم وبلا حقائب وبلا اقلام استطرد كل خيول قصائدى وكل قطارات احلامى وخفقات سهادى العنيد اتوسد بقيا عزلتى بوحشة وسكون بصمت يكسونى الملل والرتابة ولم اعد جزء من نصوص انتمائى للورد والرياحين ولم اعشق فى سرى حيث المطر فى قلبى توقف فجاءة كأنى لم اولد بعد ٬ جزء من همسات الايام المليئة بشبح المغامرة والصمود والتجلى والفضول المستمر وحيث اكون او لا اكون بعد ما انهيت دراستى الجامعية فى القانون بالعاصمة الليبية طرابلس كنت وجلا اتمشى اتفقد كل العناوين البعيدة والخبرات العميقة اتقفى اثر الاشياء ارنو لأعلى لا ارقص فى دائرة الخوف فقررت ان اواصل دراستى العليا فى القانون وقبل الالتحاق بالعمل فى مجال القانون كنت مهتما بمواصلة البحث والتنقيب عن المصير والهجرة وراء البحار لأكمال الدراسات العليا وشاءا الظروف ان اقوم

بمراسلة عنوان احدى المؤسسات بمدينة سدنى بأستراليا القارة المحظوظة كما كنت اعتقد وكما سمعت عنها فى كثير من اخبار المارة والرحالة والمغامرون وكنت افكر واهم بسداد نفقات الدراسة والسفر الى ما وراء البحار والتى ستكون مرهقة لحد لم اعد احتمله وبما ان الدراسة ستكون باللغة الانجليزية لم اكن قلقا لانى لدى المام بها وقد قرات كتابات آلان بتون وشكسبير وبرنادشو فى الادب الانجليزى واعتقدت ان رائحة المغامرة والمتاعب والحياة الملوكية هى مزيج للخبرات لكن الحياة فى استراليا قد لا تختلف لشاب يافع من افريقيا تعود على الغوص فى الرمال والرماد والوحل وتسلق الجبال واللعب فى الترع الراكدة والمغامرة فى الادغال هى تجربة كافية كى لا ادخر الكباء ليوم الغربة المرتقبة ولم اكن اتخيل كيف تكون استرالياو ماهيتها فقد ارسل لى القبول الجامعى من معهد لدراسة اللغات والادارة على ما اعتقد انه شمال مدينة سدنى وفى وقتها لم اعرف عن مدينة سدنى الكثير سواء انها مدينة استرالية بعيدة تختزن فى جوفها رائحة الاوقانيوس وتاريخ سكان استراليا الاصليون الابيروجونيز والحياة الجديدة فى اقصى الكرة الارضية ولكن المؤسسة التى كانت تقوم بتنسق عمليات قبول الطلاب الاجانب خاصة القادمين من افريقيا

والشرق الاوسط تتفنن بتجميل الحياة وتشجيع القادمين بالمزايا الجميلة والروعة المنقطعة النظير والسعادة الابدية والدفئ المتكامل فقد ارسلت لى خطابات تحدد مواعيد الدراسة والحياة الجامعية بفخامتها وتواضعها والسكن الجامعى والاجراءات الادارية ولمحات عن تاريخ استراليا والطقس الرائع والبيئة المتميزة والمتفردة والمدن النظيفة المرتبة الجميلة والراقية ومثاليتها وخاصة مدينة سدنى العاصمة التجارية ومن اشهر معالمها مبنى الاوبرا هاوس بشكله الهندسى المجنح الملفت للنظرحيث هنا قمة فنون العمارة والمناظر السياحية والحيوانات البرية خاصة شعار استراليا حيوان الكنغرو الذى اراه فى الصورة وهو واقف على رجليه يحمل ابنه على جراب بطنه بحكمة بالغة ومحيرة وهذه فطرة الاشياء هذه قصة قديمة مرت واصبحت من الماضى لكنها لم تدفن بفشلها ولم تغمر بتراكم الايام والاشهر حولها وانما هدات فى ثبات عميق .

وبيان أن التاريخ يعيد نفسه شاءات الظروف ان اواصل دراساتى العليا فى مكان غير الذى سكبت فيه ماء عيونى ورسمت فيه بهو اغنياتى وعانقت فيه شكل المطر الخرافى وفى الوقت الذى سكنت فيه اشرعة رحلتى نحو الارض الجديدة فى اقاصى اطراف العالم حطت بى رحال الايام ان لا اتخلى عن

خوض غمار السياسة فى بلدى السودان واكتب فى الادب الشعر والقصص واهتماتى بالكتابة والعمل فى مجال حقوق الانسان وهذا سبب لى المتعب المؤلمة وحرمنى دفئ الايام الجميلة وحال بينى وبين البقاء مع عائلتى بامن وسلام وقد افتقدت اهلى كثيرا وغادرت بلدى مجبرا اتحسر وابكى فى سرى من اعماقى انزف بحرقة اعاتب البشر والشجر اخاطب البحر والسماء اتحدى صقيع الشتاء وقساوة الاحلام وهلوسة الليالى المعتمة ومرارة التشرد والتسول فى قاع الخريطة انظر عبر ثقب كلماتى لكل المدن الخرافية ولكل الجزر الساخنة ولكل الاعلام الممزقة ولكل الحيطان والجدران الصلبة كل شيئ امامى هو لوحة بلا منافس حتى رائحة الدموع وضوء الشموع والصلوات والخشوع وحتى ظلى من حولى رهيب ان يبقى بلا ملامح لابد ان يرحل وقد وحطت بى الرحال بالقارة الاوربية بمملكة بلجيكا ولم اكن ادرى الكثير عنها واستقر بى المقام بمدينة بروكسل العاصمة الجميلة التى سكنت فى اعصابى ورسمت فى جوفى بعض كلمات البقاء والصمود والتضحيات وعدم الانطفاء وشاءت المشيئة ان وازور بعض المدن البلجيكة فى شمال وجنوب بلجيكا فى زيارات خاطفة ولمناطق محددة زيارة اصدقاء او معارف او مشاركة فى ندوة او منشط ثقافى ثم

اعود لغرفتى الصغيرة ببروكسل اتوسد امتعتى وافكر فى المجهول بلا انقطاع لكن هذه المرة جاءت الدعوة والمشاركة مع منظمة اتحاد الكتاب البلجيكيين الناطقيين بالهولندية المعروفة بالقلم الفلمانى او بين فلاندر واستضافتى بشقة رائعة وجميلة ومنظمة ومرتبة فى الدور الثانى باشرع بروكسل بمدينة انتويربن عاصمة اقليم الفلاندر الناطق بالهولندية وقبل ان ارى الشقة كنت اجلس بمقهى رويال على المحطة القطار الرئيسية المعروفة بالسنرتال استيشن ومعى صديقى الدكتور محمد الغريانى مصرى هولندى الجنسية وقد كنت على موعد المنسق صديقى الرائع سفين ومعه والده كان يحاكينى مرة بالفرنسية بلطف وادب عال ومرة بالهولندية ومرة اخرى باللغة الانجليزية اذ ان السيد سيفن يعمل استاذ للغة الهولندية لتلعيم المهاجرين وهو صحفى ونحن فى محطة القطار قبل ان نتمتطى سيارة والده لفت انتباهى اننا سرنا عبر الممر الممتد بكشل مميز اعلى محطة القطار حيث ان المدخل باعلى المحطة هو يؤدى لمحلات الالماس الشهيرة التى يملكها اليهود بالمدينة وهذه المرة الاولى لى ارى محلات تجارة الالماس اعلى المحطة وعند وصولنا للمصعد الكهربائى الخلفى كانت يد والد المنسق سيفان تشير لى على اليمين هذه حديقة الحيوان الرئيسية وكنت اتجاذب معه

أطراف الحديث وتحركنا نحو جنوب المدينة على ما يبدو لى اذا لم اكن فقدت مؤشرات الاتجاهات حيث شقت السيارة طريقها بتأنى وروية وغير مسرعة كنت اجول بخاطرى نحو الشمال والجنوب مرة تلو الاخرى اتفحص معالم المدينة ولقد لفت انتباهى ان هذه الميدنة نظيفة ومرتبة وتبدو حتى وصلنا لمقر اقامتى بشارع بروكسل الواقع بمدينة انتويربن بالقرب من مبنى المحكمة الجديدة وقد صعدنا حتى وصلنا للشقة مكان الاقامة وبعد ان اكملنا اجراءات السكن والتسليم والتسلم تركنى سيفنى وغادر ليلتقى بعائلته وحيث جلست وحدى انظر عبر النافذة فأذا بى اجد نفسى اتخيل ان منظر المحكمة امامى هو يشبه ذاك المنظر القديم لمبنى اوبيرا هاوس الشهير بمدينة سيدنى الاسترالية التى سكنت فى ذاكرتى منذ مدة وبما اننى درست القانون انظر للمحكمة عبر النافذة فهل انا يا ترى فى غرفتى ام على شاطر البحر اتأمل الشكل الهندسى لمبنى المحكمة الجيدة ليبدو احيانا مثل السفينة الراسية على الميناء تترقب المسافرون للملاحة فى رحلة بحرية ممتعة تقود وهنا مرة اخرى اجد نفسى بمدينة انتويربن المياء القديم الذى منه غادرت افواج من البشر للارض الجديدة وقد زرت الحوض المخصص لبعض السفن والمشهور بحوض بونابورت نسبة

لبناء فى عهد نابيلون وها هى الذاكرة لم تتوه ما بين سدنى وانتويربن لتدق ناقوس للذكرى والايام الماضية وتظل المدينة عامرة وبحركتها والاضواء ورائحة المطر واصوات النوارس وطيور البحر التى لم تغادر بعد.

مدينة الشَّجن السِّرِّي

فى طرقات المدينة العامرة بالمقاهى المتراصة الأنيقة تتسرب اشعة الشمس الهادئة ، والغيم الرمادى يكسو السماء الزرقاء ، وزخات المطر الدافئة تتناثر مثل حبات البلور الملكى الفاخرة ، وبريق الأضواء اللامعة على المداخل مثل الجواهر ، وأصوات النساء الحسناوات بملابسهن الأنيقة وشعرهن الذهبى الأشقر الجذاب يتلألئ ويتماوج بجاذبية رائعة ويتدلى كشلالات الذهب ،والعيون الزرقاء الواسعة والفاتنة تأثر المكان بحلاوتها ودفئها المريح وفتونها ' حيث تمتد الجماليات والروعة ويجلسن برومانسية واريحية واسترخاء منعش على زوايا المقاهى النظيفة المزدحمة نوعا ما ، وتنساب السمفونيات الهادئة والموسيقى الكلاسيكية الناعمة ' وتتعرج الطرقات والأزقة النظيفة لتلوح مشاهد المطاعم المرتبة باتقان تتوزع حولها الطاولات المزينة بالشموع الملونة والشراشف البيضاء والحمرا والأكواب المرصوصة بشكل منسق ينبئ عن رومانسية المكان وصبغته

السياحية والفخامة الواضحة ، والمزهريات تتوسطها الورود المشكلة والمنسقة ببراعة ، حيث مجموعات وفود السواح يلتقطون الصور التذكارية من حولها التماثيل والنصب التذكارى الشهير لقصة مدينة انتويربن ، إذ أن القائد الفارس يحمل اليد ويلوح بها ناحية البحر حيث الأسطورة الشهيرة والتى تمجد فارس المدينة وقهره لقائد العصابة القرصان فى منظر يمثل تاريخ المدينة الساحر وتعاقب الاحداث من واقع التاريخ المشهود .

ويبدو أن البحر هو هبة المدينة ، بينما يتقدم السواح وأمامهم مرشد سياحى خبير فى المدينة يتحدث باهتمام ويشرح بحنكة ، بينما ينصت له السواح كانهم يشتنشقون عبق رائحة الماضى ورياحين القرون الاولى والمارة من حولهم يتحدثون بلغة هولندية سريعة وبلهجة لم تكن كما هى تقرأ بالشكل المألوف وعلى الجانب الاخر حول الكاتدرائية العملاقة ذات الزخارف المعمارية النادرة والتاريخية المنقوشة بالذهب تبدو ذات سحر وجمال خلاب وعمق حيث الازقة الضيقة بطرازها المعمارى القديم تتعرج تشقها خطوط الترام الكهربائى المنفردة وتتعرج وسط المدينة والمقاهى تحفها باتقان واللافتات مكتوبة بالغة الهولندية بشكل فنى رائع، وبينما انا اجلس وانتظر قليلا اتناول

كوب من الحليب الساخن فى مقهى دى انجيل الشهير وسط مركز المدينة ' اتجول بنظراتى المندهشة اتفحص المارة بحماس واتخيل المناظر من حولى حيث اسافر بعيدا فى قاع المدينة وجوفها العميق، واستنطيق حوريات البحر الرائعة لتبدو فى طوابير طويلة ترفرف فى الافق على السنة الشاطئ المتعرج تقتات وترشف قبلة الحنان وألق الروح من الزمن البعيد قصة ونشيد تتوسط اخبار المدينة التى ارهقها القرصان بأتاواته المملة والشريرة بينما وهج البطولة يبدو فى ملامح تمثال الفارس العملاق بنشوة تتخطى الاسطورة وحجم القصة والتاريخ من قداسة، وحقا المغامرة ترسم صورة للماضى التليد والصمود الرائع والتجلى الكبير مثل نوافير المطر الدافئ التى يمتلأ بها نبض مدينة انتويربن وخيوط البقاء المستمر والحياة الحيوية النشطة حيث تبدو تعرجات الحكايات نسيج متسلسل حيث ظلت احوض السفن التى تحمل المهاجرون للارض الجديدة ومئات الالاف من عابرى البحر يتوسدون احلامهم يشقون عباب الامواج نحو الارض الجديدة فى رحلة بعيدة مليئة بالمغامرة والبحث عن الذات والمصير بينما المدينة هنا صامدة تتوكأ بسكون وصمود جذاب وفى اعماق سراديبها تحمل فى جوفها كل عناد الماضى لحونا جميلة وعباءة للبقاء . وفي الذاكرة

شيئ من نبض الحاضر والماضى وتجليات المستقبل وكأن الأفق الواسع وردة قرمزية تتموسق عبر السهول الفلاندرية الخضراء، وارصفة الميناء لا تخفئ ماضيها وعراقتها وانا اقف مع صديقى سفين بيتر الكاتب ومعلم اللغة الهولندية للكبار والغير ناطيقين بها نتامل المدينة من قمة متحف ماس لتبدو كل لحظات الحاضر والماضى ببريق الاسطورة حكاية اخرى جميلة نستكشف منها شكل المدينة من اعلى مثل شلالات الأحلام الوارفة فى كتب الرحالة . وفى كل محطة توجد رقصة للتأملات العميقة والقصائد الخرافية ونسمات الحقول الجميلة تتسرب عبر القنال المتعرج والقرى الهادئة تتوسد السهول الخضراء الممتدة على مد البصر والأرياف الانيقة الوديعة تغنى بلطف وفرح كل شيء نشيد مطرز بالأغنيات المشرقة والكرنفالات والالعاب الضوئية، ورائحة المطر المنعشة .، ونسمات الساحل الملبدة بنكهة الملح تجعل من طائر النورس الابيض والرمادى يخفق فى اسراب كالاعلام ترفرف فى الافق الواسع والبحر يمتد مع خفقات النوارس والنسمات الخريفية الباردة نوعا ما .

وانا ارتدى بعض الملابس الواقية للبرد والنسمة التى تهب من جوف القنال وانظر نحو اسداف مدينة انتويربن اسافر بنظراتى عميقا استكشف اجنحة المدينة وصدرها العامر

واتمرجح اتتبع وميض المدينة وصدى الأغنيات المتموجة بمواعيد الاحتفالات والكرنفالات المنتشرة فى ارجاء المدينة والساحات العامة ورقصات الاوبيرا والبالى الرشيقة وتبدو الحياة هنا تتراقص بأستمتاع مثل ذكريات الرحالة. وشجون الخريف وسحر المكان وقناديل والبلور المدهش .

ومن حولنا مجموعات السواح وافواج الزوار يعتلون سطح متحف الماس كأنهم يغازلون النجوم بقبلات الأمل وشموع الحنين والنشوة العميقة وعلى حنايا السطح تترسب خفقات الشعاع الطويلة الملبدة بالغيم والأحلام البعيدة كاللوحات البرونزية القديمة.

ونحن فى الافق الشاسع نتنسم عبق المطر تبللنا زخاته وريدا رويدا بكشل سريالي خلف نافورة الأشواق والتاملات والنظرات العميقة خلف القنال والضفة الاخرى . حكايات طويلة بلون العناد والصبر المهيب تنازعنا فى روعتها ودهشتها وسحرها الخلاب كأننا امام نوافير من الشموع والاضواء السائلة تفيض وتملأ كل المساحات والميادين الفسيحة يا لها من لحظات مهيبة وموغلة فى الروح والقلب،

والشجون المترعة بالذكريات البعيدة ودهشة المنظر تغسل عروقنا وتنضح بدهشة التآملات وبسر المكان وخلايا الزمن

الأهليجي التى يتكون فى حنايا المدينة العامرة ، وفي الأفق العنيد ترسمنا الاشياء القديمة كالقصائد البلورية المعتقة بالبخور وبرائحة الإكسير، وتنسج في أعصابنا وشاحا من أناشيد وروعة .

وفى الزاوية الأخرى يبدو متحف الأدب الهولندي الفلاندري ليست بعيدا حيث تجتمع الرومانسية والواقعية والسريالية والانطباعية والكلاسيكية والتجريدية كلها ببيت الأدب قرابة مائتى عام من التواصل الروحى والوجدانى العالى إيغالا فى النفس وتفردا وغوصا فى جواهر الأدب والقصائد الجميلة والكتابات العميقة هذا الخيط من التواصل قادنى لرحلة البحث فى متون الحروف والنصوص البرَّاقة والأسماء الخالدة التى كتبت نفسها بثقافة عالية وانتماء جذاب والكلمات والوجوه هنا على باحة المدينة تتشكل وتتماوج بروعة فى شكلها تبدو مسكونة وموشمة ومغسولة بالنسمات الأبدية مثل مصابيح وقناديل السماء المرمرية الحالمة السيمفونية العجيبة ذات لوعة وفتون، وفى قمة جمالها، وهنالك خلف الشواطئ الجميلة، ترقد عيون القرى الهادئة المرصوفة بأتقان، وسط أحضان ساحاتها ابتسامات الأحلام . تتسرب لأحضان الأرض الواسعة، ومن حولها النغمات العذبة، منقوشة بالفرح السري وممزوجة بالعشق الخرافى والمطر المتعش .

ونبضات القنال الجميلة تغازل ترنيمة السهول الفلاندرية السندسية الساحرة، وأنشودة المساء تتوارى رويدا رويدا، لترتوي معها أجفان الشمس الملبدة بالغيوم الآسر.

وهنالك بين أعماق الروح والقمة، تطفو المشاعر الطيبة اليانعة وافواج المهاجرون القادمون من وراء البحار البعيدة والارصفة المسكونة بالصبر الطويل والصحارى الشاسعة والغابات الاستوائية المطيرة يشكلون لوحة متفردة من ملامح المدينة، تتدفق بروعة وشجى، وتحتضن الأحلام المموسقة الشجية في الأفق البعيد. هكذا قلت فى نفسى قف وتأمل ولو سرا على شكل قلب المدينة العامرة وحافتها عند الغروب، واشرب من رحيق دفئها وجمالها الأمل ينابيع من نور وفتون وشوق وخفقات، وحركة الحافلات والترامات الكهربائية تطوف ذهابا ومجئيا تربط اصقاع المدينة بقلبها وملامح جميع البشر فيها تبدو قصة مثل أرجوحة اللقاء، تطوف عيون الأحبة، تنسج عشقا رائعا يحمل على ثناياه خرافة المكان وأبجدية الأمواج لتشيد الجمال الانسانى الراقى والمتفرد حقا.

القصة عنيدة أيتُها الأرضُ السَّمراء

الشفق المهيب نثر أغنياته كالنسمات الأبدية على نبض دمائنا الحارة، والسماء المرمرية المدهشة مدت قناديلها السيمفونية العجيبة بوسوسة ولوعة وفتون، وفى قمة انتمائنا تشع الأرض السمراء المرصعة بالزنبق ورموش الياسمين، ترتدي همس الأطياف العبق، ومن حولها زغاريد الأبجدية الخلابة، تتمرجح كالأساطير البابلية، تنادم وشوشات الرياحين الناعمة، وغنج أميرات الشرق.

وهنالك خلف الشواطئ الجميلة، ترقد عيون القرى الهادئة، وسط أحضان الجبال الزرق وعلى محياها ابتسامات الأحلام والشموع. بغبطة وخشوع تتسرب لأحضان الأرض الواسعة، تغرس جنة من حروف وأناشيد بشغف وفتون، ومن حولها عصافير المرايا تدفق الحنان والألحان الناعمة العذبة، تلاطف نهود العذارى، وتلاطم نسمات الفرح السري الممزوجة بالعشق والمطر.

ونبضات الأرض السمراء تغازل ترنيمة الوادي السندسي الساحر بكبرياء وهناء، وأنشودة المساء تتوارى رويدا رويدا، لترتوي معها أجفان الشمس الملبدة بالغيوم السعجدى الآسر.

وهنالك بين الأعماق والقمة، تترنح اللحظات اليانعة، تتدفق بروعة وشجى، وتحتضن الأحلام الموسقة الشجية في الأفق البعيد. آه، والأفق عصفور من رحيق الذكريات، امتلأ جوفه بموسيقى الدفء الرائعة والتأملات.

آه يا قلبي المسافر دوما في حنايا الأناشيد السمراء، قف وتأمل ولو سرا على حافة الغروب، واشرب من رحيق الأمل ينابيع من نور وفتون وشوق وخفقات، وارسم خطوات الدموع والشموس قلبا رحبا طال ركضه في بساتين البلسم والرحيق الرحبة، وارشف قبلات الحنين نجوما بطعم القصائد المنعشة، وارتوى من شفاه قوس قزح كهمس الأكاليل السلطانية والعناق العميق، وتمدد على صدر السماء لترضع لبن الشجون ودهشة المنظر، وقف كالشمعة الجميلة لتبدو الحياة سرا جميلا ولونا جميلا ونبض جميلا وأملا جميلا وحلما جميلا وعناقا جميلا.

تلك هي أحلامنا عند أرجوحة اللقاء، تطوف عيون الأحبة، تنسج عشقا رائعا يحمل على ثناياه خرافة المكان وأبجدية

الأمواج لتشيد معها قصورا من أنفاس براعم الورد الغضة، ومن حولها يطوف طائر السعادة يتلو قصيدة الغرام السرمدي على بلاط أفراحنا لتذوب على محياها كل ثلوج الغربة والكآبة، ولتتفتح على أهدابها ضلوع المسافات العجيبة، وتنحت من خفقات القلب نافورة من أريج وبخور يعطر خيمة المساء ويعبق أجنحة الشعاع المليء بالرحلات العنيدة والصبابة.

آه أيتها الأرض المعطاء، هنالك تلوح ضفائر رحلاتنا السرية مثل كوكب من أناشيد ونغمات وأشرعة وزوارق تصفق على الشواطئ النضيرة، تناديها مرافئ الشجن والحنين.

أيتها الأرض اكشفي لنا عن أسرار القلب الواعد بالهمس والأحلام، وارشفي معنا الأمل من جديد ترنيمة من ينابيع دافئة أدمنت الشوق والشبق البض والأغاني البلورية الرخوة وانفخي معنا الأنفاس الدافئة المنعشة لتكشفي لنا عن سهاد طويل ورنين الأنوثة المقدسة في قاع الذكريات وعمق الحكايات. هنالك تصفو جدلية المكان وتتلألآ صورة جميلة مثل كل الحور العين والحسان.

قفي يا أنت وعانقينا ولو سرا كي نسمع رنين الأعماق في سكينة، وتناجينا أهداب العيون المرصوفة بدموع البهجة، وداعبي نبض دمائنا وومض بسماتنا الرقيقة الشفافة كالمرايا

الوضاءة على الوجهة الحالم، فيا أبهى حلم بين أشرعة المسافات يتفرهد ويشع من بين أساور الفرح الساحرة، القصة طويلة، القصة عنيدة تلوح كأذرع ناعمة تلف أحضان الأرض بحنان وحرارة، والأرض السمراء في دمائنا قصيدة جميلة قصيدة للأمل والأحلام والعناق والتأملات، وخريطة من نور بلون محاريبنا، وترنيمة في منارة الشهداء وقبلات عفيفة تملأ قاع السماء، وزغاريد رقيقة تشعل الحياة أغنيات ودعابة بالدهشة والسلام والأمن.

تلك الحكاية هي الأرض السمراء، وعلى صدرها ينام كل شيء جميل تتغذى منه أرواحنا إلى أن نلتقي يا حبيبتي الخرافية، يا عشقي الكبير، بقناديل الياسمين والبخور،تحفنا أحلامنا الأولى، وأغنياتنا الواعدة وعروساتنا الجميلات.

حلم العنقاء البَدَوِيّة

(١)

الكلمات تتوهج كالقناديل السحرية عندما انظر إلى عينيك بلا انقطاع، كالمطر الاستوائي يروي غابات الأبنوس بغبطة وسرور، فأولد بين يديك رجلا مستحيلا بحجم أرخبيل العسل والأحلام وصدى الرياح، وأتجلى قديسا وشاعرا من زمن خرافي، وأتوج نفسي ملكا على حروف الورد، وكل القصائد المهاجرة على مسارات رمشة عيونك، ومدن النور والبلور والياسمين ورمال الصحراء، موشحا بكل لغات العالم شرقا وغربا.

وأنت احلى من كل أناشيد الشجن القديم، وقبلات الوادع الدافئة، وابتسامة الموعد المدهش، وروحي العنيدة ترنو إليك، وتتراقص كالأمواج الإهليجية تتلاطم في سماوات خيال المكان، وتسافر بي التأملات سرا وجهرا على مد البصر كطائر بحري يرفرف بلا انقطاع ضل طريقه لجروف الحرير البعيدة، وتخوم الأرض السمراء.

لم تعد كل الشواطئ القديمة سوى نقاط في قصيدة انتمائي للمطر، لم تكتمل رقصاتها ومخاض صباحها تعثر في ليل طويل، طويل، طويل، سجنته المواويل والأشجان والغربة الشاحبة المغسولة بزيت الدموع الرمادية، وشهقات شتاء فبراير.

آه، ثم آه، يا سلمى الرائعة؛ يا قنديل جبال الألب السويسرية، ويا ريحانة بروكسل الساحرة، ويا جوهرة المدن الأوروبية المدهشة، ويا عصفورتي العاشقة لتلال الصحراء الذهبية وأغنيات الواحات السندسية ونكهة الأمل الكبير.

دعيني أرسمك لوحة جميلة تتوسد الشعاع على تلال الصحراء الكبرى امتدادا من جبال الأطلسي الزرقاء وحتى تخوم السافانا الخضراء، تستنشقين رائحة النيل بخورا للحياة، وأنت كطائر العنقاء قادمة من وراء البحار ومعك كل الأسرار المفرحة، ترفرفين بتجل وحبور وتفردين جناحيك البضين مع قوافل الابل المسافرة عبر أخدود الواحات النضيرة، وشجيرات النخيل الخلابة ورعة المشهد المهيب، ويصير حلمك بدويا وأسطوريا، فأتذكر في سري أبي وطفولتي تسكبني شلالات من الذكريات الخالدة وتكسوني وهجا جميلا كالبركان من الأعماق ينبت وردا ناعما مسقيا بالأشواق، وعطر أغنياتك وصوتك الجذاب.

وأنت حورية الصحراء الفاتنة تعصرين كبد أنشودتي خمرا وعسلا مصفى، ويصير معك الصمت مرآتي لقصائدي الجديدة، وروحي المموسقة باللوعة والحنان والنشوة والدهشة، فأجد فيك الابتسامة البدوية قاموسا نادر التكرار على مشارف المدن الأوروبية .

واشم فيك نكهة النخيل وسحر الواحات ودفء الروح في كل الحدود البعيدة واهتف معك لا اعترف بحدود دولة تمنع حلمك البدوي يتدفق نهرا مثل العطر الباريسي، وينساب كالنور والوهج والحرير الإمبراطوري .

(٢)

هناك عبر تلال الصحراء الذهبية المتعرجة بإتقان على مد البصر، سكنت روحك حلما جميلا يتراقص بومض دمعات الشوق والدهشة والسرور مثل الفراشات تداعب الزهر الموشح بالندى في منظر ساحر خلاب، تتلألئين كوميض الفيروز والألماس النادر، والشمس الذهبية تسبح على السماء الفضية الصافية ترسمك تحفة أروع من سجادة الورد العملاقة بغراند بلاس في ربيع بروكسل.

يكسو وجنتيك الأسطوريتين رونق وشكل برونزي خرافي الملامح، ملكي التكوين، والريح الهادئة تلف خصلات شعرك

الذهبي المياس كشلالات الحرير السمرقندي الناعمة، والحياة هناك افج مفتوح للفرح والرقص المنعش والغناء الموشم على جدار القلب شمعة تضئ ليالي السمر.

نظراتك الحنونة مكحلة بليلة قمرية يملأها البدر جمالا ووضاءة، فما أجملك حين اكتب فيك قصيدتي وأشعاري، وأنت فيها البدر الكامل تنيرين مسارات القوافل الراحلة عبر الوهاد وواد النخل!

تلك هي كلمات لوحدها تفسر كتاب الرحلة وصدى التأملات والخيال الشيق وهمس موطن القبيلة. سيظل الحلم البدوي نافورة رحيق تعطر حبات الرمل والأنامل البضة ورموش العيون الدافئة .

(٣)

كنا هناك في مطعم التاج البروكسلي، نجلس أمام المرآة السحرية، نكون دلتا لنهر الشوق وانا ابحث عن عنتر وسيرة ليلى وباقي أفراد القبيلة، اجمع حروف الأبجدية من بريق ابتساماتك الملهمة لتصير وطنا بديلا للغربة الأليمة، ونهرا مقدسا يغسل خطايا الحزن والشجون الكبيرة. وعيناك تنبت مليون غصن زيتون سرا وجهرا، وانا أمامك أكون عطرا

ورحيقا وتمثالا ومطرا شتويا، وروعة الكلام تسكبني أمواج من عسل ابدي المزاج.

آه.. آه. هل سأظل أقول آه كي تنطفئ الشموع الحزينة، أم أتلوى كي أحلب النجوم وأسقيها برحيق القلب ونكهة شجر الإكسير، واسبح معها في حوض البنفسج نقضي معا الألاف السنوات الضوئية في رحلة التجلي والتأملات والوهج العنيد؟

الرَّقمْ ١٧

دائما أجلس فى غرفتى الصغيرة الواقعة بشارع سانت الفونس ببلدية سانجوس بمدينة بروكسل بالقرب من محطة مترو مادو مافسة دقيقتين مشيا على الاقدام وتطل على شارع بورتاجى وتقع فى الزاويا فى الطابق الاولى على شكل مخروطى وتفوح برائحة الطعام والبصل المغلى ورائحة الملابس فى وقت واحد وينتابنى شعور اننى اسكن فى مطبخ او مخزن قديم لذا كل زائر يأتينى قبل ان يعلق على منظر الغرفة وشكل الستائر الكلاسيكسة الانيقة الملونة بالاحمر والاصفر التى قمت بتفصليها بنفسى وتركيبها على الجدران تتدلى عبر النوافذ ابادر بالاعتذار عن ضيق المساحة واقوم باحراق البخور السودانى واعواد الصندل ظنا منى انى أتخلص من رائحة الطعام وافتح الستائر وانظر عبر النافذة للناس المارة بالشارع وحركة السيارات وفجأءة رفعت رأسى ونظراتى للبرج الزجاجى العالى ذو اللون البنى امامى يفصل بيننا شارع بورتاجى فأذا

بى تذكرت وتخيلت نفسى وانا فى اواسط اغسطس عام ٢٠١٣ ترجع بى الذاكرة للوراء لاواسط شهر يوليو ٢٠٠٩ كان الجو معتدلا لم يكن ساخنا مثل الصيف فى افريقيا اذ اننى كنت امام محطة القطارات ببروكسل شمال حيث ينتشرعدد من طالبئ اللجوء والحيارى ومن حولهم حركة القطارات وسيارات الاجرة والمسافرين بملابسهم الأنيقة يعج بهم المكان وانا واقف فى حيرة من امرى مشتت النظرات التفت يمينا وشمالا افكر واتأمل انظر للابراج الزجاجية العالية حيث يقع مقر ادارة الهجرة والاجانب التابع لوزارة الداخلية داخل البرج زى اللون البنى ك يبفتح ابوابه وعند السابعة والنصف صباحا وقفنا فى طابور طويل واحد تلو الاخر امام مدخل الباب ٥٩ فى صف طويل بأشكال والوان مختلفة نساء ورجال واطفال مع عائلاتهم يبدو عليهم الارهاق والخوف والتوجس والاحباط ننتظر الدخول لطلب اللجوء وعند المدخل اصطف عدد من الحراس يقومون باعمال التفتيش والتأمين وتفحص هويات كل الناس الموجودين على الصف وجنسياتهم حيث تم توزيع علينا بطاقات تحمل ارقام فقط لانها كما يبدو هى اسمائنا الجديدة التى لا ندرى عنها شيئ سوى انها ارقام وفى الدقائق الاولى فقد تذكرت اذ اننى فى يوم من الايام رقم معلوم لنفسى ولمن حولى

لكن الأن وفى لحظة ما من مسار الحياة والهجرة والخوف المستمر اصبحت مجرد رقم من الارقام النكره التى لم تعد لها مكان حتى فى كشكول الحساب والضرب والجمع والطرح والناس على الصف من حولى يتدافعون واحد تلو الاخر بتوجس نزحف كالسلاحف ببؤس نجر بعض الامتعة البائسة حتى وصلنا للصالة الواسعة داخل المبنى الزجاجى البنى اللون العالى وجلسنا بهدوء واندهاش وتوجس لتكتمل مناداتنا لداخل المكاتب لتسجيل بياناتنا الاولية ونحن على الانتظار، اذ بيشردت بعيدا مع افكارى فتذكرت منظرالسافانا الساحرة اذ ان الطيور هنالك لها اسماء وليست ارقام والسماء لاتخبئ النجوم رغم كثرتها ولمعانها الا انها لا تحمل ارقام ولاتضل عن احد والمطر بعطره ونكهته يتسرب الى اعماق روحى دافئا ورائحة الارض الممبلة بالاحلام تتراقص بالامل تحت اقدامى كالدمعة القديمة تمتزج بأغنية البهاء وسمفونية للوفاء والتخيلات، هنالك سكرت بأحلى الأناشيد المنقوشة بالابتسامة القديمة وملامح القرى البعيدة الهادئة تتماوج فى خيالى قبل ان تحترق برائحة الخوف والحزن والالم والرقصاتا لريفية كرنفال للحياة. وتحت حبات الرملا لمغسول بالاحلام والامل تبقى للروح بقية للابتسامة من الاعماق، الشمعة ذات

الضوء الخافت بدموعها الناعمة لاتقاوم الرياح تنطفئ بهدوء ليشع نور القمر بروعة واصوات الصراصير والضفادع وبعض الثعالب البرية ودحاج الوادى البرى تأتى من داخل الاحراش بأنسياب محير...

و منظر الحقول والبراري البعيدة يأسرنى حيث المكان، وأطفال القرى المرحون يوقدون ألف شمعة وسط الطريق. ببطء والخريف ينام فى عيون الجميع.

تلك رائحة الأمس فى اسداف السافنا، حيث تبيض الشمس عسلا وأنوارا من لبن ورحيق، وتتمرجح على حبال النيل الذهبية، والجبال الزرق المحفوفة الدخان، والغابات الخضراء المسكونة بالأمان، والأنامل السمراء المنقوشة بالحنان . آه . وآه . كل شئ فى ذاكرة القرية البعيدة النائمة على ضفاف مهجتي يختزن لون الشمس ورائحة الأبنوس بتجل وحبور وصدى الأنغام ينساب دافئا فى قرى دارفور البعيدة، ا لمعروشة بالرمال والصبر والتضحيات والسهول المبرقعة بالرصاص. ما اتعس لحن التشرد فى قاع الخريطة وأكوام الرمال الثقيلة ! وماأحلى النوم على الأرصفة عندما تغنى عصفورتنا البيضاء بعيداعن الجدران ! ليس لنا الآن مزمار نغنى به. آه . القصة طويلة، تتلوى فى ضلوعنا، والكلمات سافرت عبر موكب الخريف

ورائحة المطر وأطفال القرية مازالوا يتعلمون الحرف الأبجدى على ظلال أشجار المانجو والباباى والدليب . كل أغنية هنا قصة وألف نشيد . وفجاءة جاءت الموظفة الشقراء الحسناء تتمرجح كشلالات السبلوقة ونادت على الرقم الذى احمله الرقم ١٧ على ما اعتقد وقتها بسرعة كدت ان انسى امتعتى التى احملها معى فى كيس بلاستيكى صغير فنهضت اركض نحوها وارفع يدى واقول لها نعم ...نعم.. انا هنا وادركت انى اسمى الجديد هو ذا وتبعتها دون ان التفت يمينا او شمال كنت مركزا معها بكل ما املك لداخل المكتب وجلست امامها وفتحت جهاز الحاسب الالى اى اللابتوب وبدأت تسألنى هل تتحدث الفرنسية فقولت لها لا اعرف باللغة الانجيزية وخاطبتنى باللغة الانجليزية ما اسمك وما اسم ابيك وما اسم جدك ومن اى بلد انت ومتى حضرت الى هنا وماهو تاريخ ومكان ميلادك وما اللغات التى تتحدثها فأجبتها اتحدث العربية والانجليزية ثم القتطت منى صورة بكمرا رقمية اى كمرا ديجتال متحركة واعطتنى دليل معلومات اللجوء مكتوب باللغة العربية والانجليزية وبيانات اخرى باللغة الهولندية والفرنسية التى لا أفهمها وقتها ومعها تذكرة لتناول حساء من الشوربة بعد الساعة ١٢ ظهرا ومع قطعة خبزة وكوب من

الشاى والقهوة ثم اشارت لى بالخروج وانتظرت بهدوء التفت يمينا وشمالا فى الصالة مع بقية طالبئ اللجوء كل منهم يحمل ورقة ورقمه ومنهم من ينتظر ويسأل ماذا فعلت هل من جديد وبعد ساعة تقريبا اصبحت لدينا اسماء فاذا بموظف اخر اصلع الرأس طويل القامة نحيف نوعا ما يرتدى منطلون جنز وفلينة تشيرت قصيرة الاكمام لايبدو عليه انه شرطى يحمل مجموعة من الاوراق المبعثرة وبدأ يتلو فى الاسماء بطريقة فرنسية او هولندية لانى ادرى وقتها ما هى اللكنة الفرنسية او الهولندية ولا افرق بينهما اصلا واول مرة فى حياتى اسمع باللكنة الهولندية عند حضورى لبلجيكا داخل هذا المبنى رغم اننى التقيت بالسفير الهولندى لدى الكميرون بدولة تشاد القريبة من اقليم دارفور فى فترة من فترات حياتى وايضا بالسكرتير الاول لسفارة هولندا بالسودان لكنى كنت اتحدث معهم باللغة الانجليزية . ونحن داخل صالة الانتظار تجمع حوالى عشرين الى خمسة عشرة فرد تقريبا واشار لنا وتبعناه بالممر بين المكاتب حتى وصلنا للغرفة المخصصة للبصمات وجلسنا واذا بثلاثة افراد يقفون امام ثلاثة اجهزة تبصيم الكترونى وبدوأ ينادون الاسماء واحدا تلو الاخر وتم تبصيمنا اصبع تلو الاخر ومن ثم كل اصابع الكف ومن ثم اليد الاخرى ثم انصرفنا وعند نصف

النهار خرجنا لتناول حساء الشوربة وتناول الشاى والقهوة داخل احدى الكنائيس بشارع انفيرس بالقرب من مبنى ادارة الهجرة وفى داخل الكنيسة توجد ملابس قديمة توزع على اللاجئين واحذية مستعملة وهنالك موظفة تساعد وتشرح قوانيين اللجوء والهجرة والعلاج والمحامى وحقوق هؤلاء الوافدين الجدد ونظام الحياة والادارة فى بلجيكا وتسمع لشكاوى وتساؤلات اللاجئون وقد عرفتها لاحقا انها كانت تتبع لمنظمة فليختن ويرك فلاندر اى منظمة العمل مع اللاجئين وبعدها بساعة تقريبا رجعنا للمبنى الزجاجى البنى لأكمال الاجراءات الاخرى حيث تم استدعائنا لداخل غرفة للكشف الطبى وتم اخذ صورة اشعة للصدر بعد ثم خرجنا لصالة الانتظار وعند الثالثة ظهرا خرجت موظفة اخرى تتلو الاسماء فاذا بها تنادينى بأسمى وليست رقم وسلمتنى ورقة مثبت عليها صورتى مكتوب عليها بياناتى تعرف بالملف ٢٦ واعطتنى معه رسالة من الوكالة الفدرالية لأسكان طالبئ اللجوء موجهة لمركز استقبال اللاجئون بمنطقة سان بيير ببروكسل بالقرب من محطة مترو بيتليون ومعها تذكرة مترو وخريطة تشير فى اتجاه المترو رقم ٥ المتجة الى منطقة هيرمان ديبروا وخرجت من المبنى لتبدأ قصة اخرى ويوم اخر مثير

و بما انى خرجت من المبنى فاذا بى اجد نفسى لا اعرف شيئ فى الخريطة التى احملها وانتظرت قليلا انظر يمينا وشمالا بحيرة وبسرعة كنت اسأل جميع طالبئ اللجوء من حولى اين هذا العنوان وكيف الوصول فاذا بهم محتاورن مثلى يلتفتون يمينا وشمالا فأذا بى عدت مرة اخرى لداخل المبنى وتحدث باللغة الانجليزية مع الموظفة مرة اخرى اننى لا اعرف ما معنى هذه الخريطة فأذا بها فتاة نشطة جميلة طويلة القامة عيونها تتلألئ من الجمال وكانت لطيفة لى حد كبير ويتماوج شعرها بروعة فخرجت معى وبعض اللاجئون الحيارى ووقفنا معها امام الباب الرئيسى الذى يطل على شارع انتويربن او شوسى ديى انفيرس واشارت لنا ان نذهب مباشرة نحو الطريق المؤدى لمحطة مترو الانفاق باتجاه محطة ايزير وسلكت الطريق امشى بسرعة واحيانا اركض والتفت حتى لا اضيع ملامح الشارع يمينا وشمالا وقطعت مسافة ٦٠٠ متر تقريبا حتى وصلت للمترو وكدت اركب بالاتجاه المعاكس بعد ان ارشدنى رجل افريقى عجوز يتوكأ على عصا يرتدى قبعة كاب وجاكيت صيفى ونظارات وركبت المترو متجاها نحو العنوان المثبت بالخريطة وكانت هذه المرة الثانية فى حياتي أركب مترو الأنفاق إذ أن المرة الأولى كانت فى القاهرة عندما كنت فى زيارة لعدة

أيام وبما أن كنت متجها نحو مركز اللاجئين المؤقت هو عنوانى الأول والجديد ببلجكيا كان لى لابد أن أكون حذرا ومتنبها حتى لا أتوه وكنت احسب المحطات واحدة تلو الأخرى وأراجعها على الخريطة التى احملها وعندما وصلت لمحطة النزول الظروساعدتنى الظروف ان اخرج بالباب الخلفى لمحطة المترو وبدأت ابحث عن العنوان واسأل المارة على الطريق فكل احد يقول انه لا يعرف فأصبت بالقلق وقلت فى نفسى كيف هؤلاء هم يعيشون فى بلادهم اوربيون ولا يعرفون فيا ترى كيف اذن انا القادم من افريقيا هذه الليلة ضعت عن العنوان فأضطررت للعودة مرة للرصيف الذى نزلت عليه داخل محطة المترو واتتبع السهم على الخريطة وثم خرجت بالباب الاخر وذهبت التفت امشى واقف واسأل حتى وجدت الشارع المؤدى للمركز المؤقت التابع للوكالة الفيدرالية لأسكان طالبى اللجوء المعروفة بالفيدازيل وعندما وصلت للباب نقرت على الجرس وفتح الموظف الباب وقدمت له الورقة التى احملها معى وسجل اسمى وصرف لى معجون وادوات حلاقة وصابون ومن ثم اصطحبنى لغرفة متوسطة الحجم بها ثلاثة سرائر منها سريرين دبل سرير فوق سرير وهنالك سرير اخر مفرد اذ ان مجموع الاماكن المتوفرة فى

الغرفة مخصصة لتسع خمسة افراد، واذا بى جلست فى احد السرائر ووضعت كيس الامتعة الذى احمله واستلقيت فى نوم عميق حتى اجد انسان يقف من فوقى ويوقظنى ويقول هل تناولت وجبهة العشاء واذا به احد الرفاق ساكنى الغرفة من الهند وهنالك اخر يقف بجنبه يبدو ان من دولة كازخستان ونهضت للعشاء لأجد على الصالة عدد من الوجوه التى التقيتها بمكتب ادارة الهجرة وبدأنا نتجاذب الحديث واذا بى احسن هذا هو مجتمعى الجديد وظللت انظر للبرج العالى البنى بشارع بورتاجى امام شبابك غرفتى الصغيرة اسافر سرا فى خيالى وذكرياتى اولد من جديد مع نبض الحروف والاحداث تلفنى بشكل درامى والكلمات المدفونة فى الاعماق جزء من سمفونيات يومياتى القديمة والحالية والمناظر القديمة هى حياة لها ايقاع خاص يعزف بلا مواعيد وبلا حواجز للبقاء والحياة.

وهْج الفانْتَازيا

أنتِ رائعة مثل وهج الفنتازيا المغسولة برحيق الشجن ودموع الأغاني البدوية.

أنتِ جميلة جميلة مثل محراب الشعراء المنقوش بأريج مليون قبلة استوائية، وسط الوحل تتدفق عسلا بطعم الهوية وخرافة المشهد العميق.

أنتِ حلوة كرائحة مطر السافانا المدهش تعانق الأحلام الخفية وشلالات الذكريات الوردية وخفقات نسمات الأرخبيل الدافئ. فى جوف أنشودتي تردد احلى اسم ونشيد بدعابة.

دعيني استوقفك بسكون رغم الزحام رويدا رويدا خلف شواطئ النيل البعيد واقرأ على شفتيك قداسة المكان وأتبخر وأذوب كتمثال الجليد أمام عينيك الدافئة، دفء مشاعري ودمائي وأسألك "من أنت؟" حين أذكرك في سري وانحناءات قوس قزح، وحين استنشقك بلسما في ضوء الصباح، وحين اشتهيك كالمرايا، لا تملها نظراتي الطويلة.

أطل من حولك، اتخفى بين اشرعه قواربي مدمنا منظر غابة التفاح فيك.

أي لون أنت عندما تتلاشى الألوان في عالم البنفسج الخلاب، المحفور قصائد للابد، تتلألأ كمراجيح دولة الياسمين وكاتدرائيات همس الأناشيد المسقية برعشة الشوق؟

أي لغة أنت في كوكب الشموع والقبلات ودلتاوات انتمائنا للمطر الاستوائي وقاموس الدموع؟

وأيُّ سماء أنت حين تظللنا السماء بالنجوم وألق الأحلام ورنين رحلاتنا الطويلة بمقياس رسم يتحدى تضاريس الخريطة؟

أيُّ صوت أنت في سمفونيات حزني وأرقي وفرحي؟

آه، دعيني أتأملك دون مواعيد وبطاقات هوية تحدد إقامة حروف أبجدية أغنياتي على منارات صدرك العالي، المشوق بالقوافي الفاتنة ومتعة الدهشة، كسحر إمبراطوريات الرومان العامرة بفاكهة غصونك، ونوافير البخور وإكسير شجوني، وطلاسم استسلامي على نكهة ميلاد شغفي الندي.

من أنت حينما أقاتل الرياح والأمواج باسمك سرا وعلانية على باحات مدنى السرية، والف حولك مشتعلا كالأسطورة

الهندية، وارسم صورتك على صدري في الليل الهادئ، وانقش نبرات صوتك الرخيم وشما يحمل انتمائي لقبيلة مزاجك السريالي؟

آه يا روحي المدفونة برماد الوداع ونوافير الشجن وغازات الرحيق على مد البصر والأفق المعروش بغمزات الغمام!

وما زالت القصة طويلة بين ضلوعي، تلهث على دربك الممرد بالترانيم والزغاريد وأكاليل العناق، كرحلات العصافير السرمدية في قاع اوقانيوس اللحون العميقة، وسجع ومض عيونك يتسرب على صفحات مهجتي المسكونة بشعاع الغزل الرقيق وخواطر الشوق الأنيق.

آه ثم آه، وأنا ما زلت طفلا يسبح على نهر انتماءاتك لنار الحروف وشبق القصائد ورعشة الأحلام القزحية.

أنا على دربك سأولد من جديد بدون اسم وهوية، اخلط اسمى باسمك واكتب عنواني على كل المرافئ، وفى فقاقيع الماء وزخات مطر الشتاء، وفى رمال الصحراء وفى شوارع المدن البعيدة، وفي دمي ولعب الطفولة وفي أحشاء الحروف البضة، واستنطق ومض العيون المنسوجة بالأرق وبالفتنة.

ومن حولك تظللني الذكريات الرقيقة المعرشة باللهفة،

وعبق الحنان، وبطيف المواويل الشجية، كالشلالات الذهبية تتمرجح على قيثارة نبرات صوتك المارد، وهمس شفتيك المليئة بغنج الكلام وسحر الالتياع، وأنا في قاع الغربة الباردة احلم بحوريات الأناشيد، وأنت احلى حورية تسبح في قلبي.

قلبي وحيد كرذاذ المطر الشارد. أتلوى بالوحشة والملل الرهيب، وصهيل الأحلام يطاردني. ادفن جراحي في لب جراحك وأسقيها بدماء قصائدي البكرية، وأنفاس أشواقي الحبلى بصورتك الخرافية، وتنساب في روحي كمرح الصبا وتغاريد الأناشيد الحنينة.

أغنيَّات الدموع الشَّاحبة

وقبض أهل بلدى المترعة بالوجوم أنفاسهم يتوهون بين الدمعات الشاحبة.. اللاهبة .. ويترقبون صورة الفتاة المهشمة المشوشة التائهة يستنشقون من زفير انفسها الدافئة انحسارت خافتة وببطء.. وتلون وجهها البرئى كشعاع الغروب وكل شيئ من حولها يرتعش،،

يرنو إليها يرنو لنظراتها المليئة بالحنان... المليئة بالرأفة ... والسنة المرارة والألم تلسع جوف كبريائها ومازال الضحى طفلا فى مخليتها لم يذق طعم الفِطام بالفرحة لم يذق طعم الهدوء بعد .. حيث ترنيمة القلب الكبير تدنو تتبع ظلها المتشرد قليلا تدنو رويدا.. رويدا على حافة الارصفة، ومناظر الافق المعتمة اغلقت ابوابها نحو الامل لتطل سحابة من الهموم ثقيلة مليئة بالكدر والذبول والانكسار... لكن عيناها القدسيتان الفاضلتان تملئان عمق الماضى والذكريات اروع الاناشيد وتبدو همسات روحها النقية الطاهرة كأغنيات حلوة ترددها مخلوقات

ما ورائية الكون، كترنيمة عذبة فى معبد قدسيى لكن فيض الدموع الشاحبة أحيانا يحجب عنها ضوء الشمس يلتفها كأهداب الرياح فى كابوس طويل وفى حناياها تنحسر أمواج الفرحة والغبطة المدهشة ويبدو شكل الكآبة غامض مثل غموض كل الأرصفة المشبعة بالصيف الحار والصقيع المؤلم السري ونكهة الملجئ وبقايا الخيام والعيدان والإغاثات هل يا ترى سيظل حلمها مخبئ بصمت مريب وسفور لكن هيهات ..هيهات .. وفى عمق الشرود الطويل صار الضحى ليلة مظلمة باردة مثل شتاء الصحراء الجاف واختفت فى حناياها الابتسامة النبيلة هنيهة ..تلك الابتسامة الزكية كأريج الفردوس الرائعة اختفت فجأة لينطفئ معها حلم الفرحة حلم الأمنيات، ومن حولها تبدو صورة الأشياء أحيانا مثل العفاريت تملأ جوف المعانى الصامدة بصمود هالة المطر الأحمر الذى تسرب فى أعصابها وصوت الرياح الباردة ناقوس أخر يدق فى سرادق المكان إنها ليلة حامضة مليئة بالضوضاء والهلوسة وصهيل الأحلام وأحزان الانحسار فى بهو الدموع.. كانت تغنى فى سرها والصمود فى عيناها اقوى واعظم وقد كان الصمود اهزوجة جميلة توشوش حول شعرها المياس الرائع وزراعيها الرقيقتان تحتضنان التضحيات والشموخ ... وشموع

النبل تشع من انواملها الغضة يا لها من روعة ابدية يا لها من حلم قدسى يا لها من صورة جميلة اطلت ليشرق معها معنى الحياة رغم تجاعيد الاحزان واجراس التداعى والتلاشى والانكسار ومرارة الوجع على جانب الملجئ البائس وبرد الليالى المنفرة .. فهى اكبر من الاحزان والهزيمة اكبر من عواصف الكآبات هى اغنية دافئة رائعة تطوف من حولها عيون الحيارى لتلهمهم تطوف حول دنيا التعساء لتسقيهم سلسبيل الحياة رغم تعكر كل سماوات الامل بالنكد يا لها من اغرودة اينعت فأضاءت قناديل السمو لتزهو زغرودة الحياة بوجودها العظيم .. وكانت ابتساماتها اعظم ..

مشاعرها المرهفة واللطيفة تختزل فى عمقها كل مساحات البقاء والصمود رغم الاشلاء وو انا الحزين ومعى كل السكان نتآمل ومض عيونها الشجية لتصفو فى قلوبنا فيثارة الوجود...

نعم هى لن تستجيب لليأس لم تولد الا واغنية الامان ترفرف من حولها رموشها الرائعة رغم رائحة البارود، وحول حاجبيها ترقد صورة مليئة بالجدليات تتوسد رائحة الايام النبيلة وتتذكر دموع الايتام ... واجاحى الليالى القديمة نعم هى ما زالت تتمدد بتأنى وسكون تجر انفاسها بطيبة ومحبة ترنو بعيدا وراء ستار القلب الطيب برزانه وسكون عميق يا لها من

فيثارة دافئة مثل صدى اغنيات الجرارى بدافور البعيدة وايقاعات الحكامات المغنيات الرائعات بسهول الارض السمراء وجروف الوادى البعيد بين غابات السدر والحراز واشجار العرد ورائحة ام بقلو ونكهة شجر القضيم والقرقدان يا لها من صفحات موغلة تجتاز بهو المكان وجدلية الاحلام والعشق الخرافى والشبق الابدى تحت دائرة المطر وشموع الآمل الجميل .

بُكائيات على خطِ النَّار

فى السنوات العجاف البعيدة مثل بعد التماثيل من الحياة والحيوية وقفت صورة المراة الملاك المراة اللاشيئ المراة التى هنا واللا هنا تسترق منى كل اوعية بكائى وحزنى وفرحى وموسم غفواتى ونومى السرى المهلهل بين حنايا الايام الغامضة حيث انشودة الولاء واللاولاء تتكرر فى ذكرة مدائن الخوف ومدن الدخان والتهميش والتوليف والتدجيين حيث كل شيئ يولد دون مواعيد حتى القصائد اصبحت تخاف سرا وجهرا ويا لها من حالة اللامعقول اندهاش، انكماش . انغلاق، انحسار، تجلى،اجتياح، سياج وقرية لليأس الاحفورى والذوبان وثنائية البقاء .. نعم هى لم تستجيب لليأس .. هى لم تولد نكرة ولم تولد قنديل ياقوت ولم تولد ملاك كى يهلل لها الجميع لم تولد الا واغنية الامان تتراقص معها بتجلى وحبور وتبدو شفتيها الاسطوريتان الساحرتان تملئان نبض الاستمرار والبقاء حيوية وانسجام انها لمسة نورانية فريدة هى نسمتنا ونسمة الانسانية

القديمة والجديدة هى بلسم كل الحيارى البائسون اللاجئون الذين ساقتهم اقدارهم بكل عناد الى هنالك والى هنا والى ما وراء الهناك والهنا ليجدوا ماضيهم وحاضرهم تعلوه ذكرياتهم يا لها من ايقاعات فريدة ... وعلى ظلها يقف الجميع للابحار والانديا ح فى وهج الاشياء يرسمون ملامح الامل تشع من تعرجات الطريق الوعر هى وهم والجميع هنا وهناك يحترقون لتتكون اضاءة للجميع لكن الدمع اكثر الاوقات هو المشهد الحاضر حتى الشمعة التى تضئ هنا وهناك تدمع ولا احد يسألها ماذا دهاك ياه من هذه الحياة النفط فى بلدى وراء الغابات الخضراء والجبال الزرق يحترق ليشقى الجميع بحسرة والنفط فى كبد بلادى يحترق ليسعد الجميع للنعمة الجديدة ما هذا البكاء وهذا الاحتراق حيث اننا فى بداية مولدنا كنا نبكى وفى اخر لحظة من يومنا التعيس نشتهى الضحكة لنسعد وتبدأ من جديد اهزوجة الخيالات العنيدة والمرارات البعيدة تطوف خفية تحمل نكهة كل الامهات وانا ومعى هم وهن واولئك جميعا نرفرف كالعصافير الخرافية كالاطياف الوديعة نهمس بلا انقطاع ننشد معزوفتنا سرا وجهرا وهى تبدو لى حلم لجميع الحيارى والسكارى والعذارى والسفالة والائمة والامة والغائبون والتائبون ... وفى قمة الموعد ووقفنا جميعا نشير لقرة

الصباح نسترد عافيتنا المسلوبة بأيدنيا ونتهم الناس والاحباب والاصحاب بأستياء ون سأل من اوقد النار من اوقد السراج من اهلك الثمار كلنا نترقب نطمح، نجرى، نركض، نقف بسرعة، وبلا استثناء نردد السؤال من اوقد النار من يمارس الاحتضار من ..و من .. نرددها كثير وفى جوف الغابة يستمر الالتهاب معه تصفر وتحمر اسداف البلاد ونحن فى طابور طويل فى سلسلة كبيرة من البشر والحجر والهواء والماء ولم ننتهى حتى من الكباء ...

رقصَات تحت الْمَطر

قطرات الماء الدافئة تتجمع رويدا رويدا فى الأفق الواسع وتتلاحم بروعة واتقان لتنسج خيمة مقعرة بلونها الرمادى المائل للقطنى تتمدد فى السماء الزرقاء الصافية، والنسمات الباردة تهب برقة وانسياب فى الحقول البعيدة والسهول الفلاندرية بشمال بلجيكا المنبسطة بخضرتها الناعمة الخلابة ويتسرب معها الهواء الطلق المعتق برائحة الازهار الرية، وفى اتجاه الجنوب تبدو القطارات القادمة بحماسة تتسلل عبر الجبال القديمة والغابات المتشابكة بأتقان ... ز فى ذاكرة المدينة تلتقى الاحلام، ومازال المسافرون يتوافدون بأشكالهم المتباينة

فمنهم ذو الملامح الاسيوية البائنة التى لا تخطئها عين والعيون المميزة ومنهم ذو الملامح الاوروبية ذو العيون الزرقاء والشعر الاشقر ومنهم ذو الملامح العربية الواضحة ومنهم ذو الملامح الافريقية الابنوسية البارزة الموشمة بحرارة السافانا .

و ارتال السيارات تنحنى على الطرقات الواسعة التى غلسها

المطر بشيئ من الصبر حيث تتدحرج بسرعة نحو قاع المدينة وتبدو متلاصقة مثل حبات الارز المتناثر فى طوابير على مد البصر ومحطات مترو الانفاق مليئة بالازدحام والقادمونو المغادرون لأعمالهم بلباسهم المتناسق وغير المتناسق يحملون على ايديهم حقائب صغيرة وفى يوم مكرر ينتهى ليبدأ اخر مثله.

و وسط هذه المشاهديفتح ساحة قراند بلاس اى الساحة الكبيرة صدرها العامر بالفرح الدهشة للمصورون بكمراتهم الصغيرة وببدلاتهم الواقية للصقيع يلتقطون تذكار من بعضهم البعض وخلفهم صورة القديس ميشيل ومن خلفه تاريخ المدينة الحافلة بالتجارب والجميع هنا تحت خيمة سماء بروكسل يستنشقون عبق تاريخ المدينة.

و على الركن القصى للمقاهى العتيقة تشرق الشمس بأستحياء تتلفت بسكون تتلمس الطريق نحو الممرات الرقيقة المليئة بالتحف الاثرية وتماثيل الشكولاتة ومن حولهن الفتيات الساحرات الرائعات الجميلات المميزات يعتقن المكان بحلاوة المشهد وفى الجانب القصى للمقاهى الصغيرة تتلاصق المقاعد الوثيرة والمطاعم الفاخرة مرصوفة بأتقان بلونها الاخضر والاحمر الغامق وتتدلى من حولها الشراشف الحمراء والبيضاء الحريرية والبلور المضئ يزين المكان بلمعانه ومازالت الشمس

تنشر اشعتها وتتسلق اسوار المكان تخترق خيمة السحاب الرمادية المقعرة ليبدو الجو ماطرة قليلا مليئ بالروعة ة على الجدران تبدو اشعة الشمس لوحة نادرة منقوشة بزخات المطر .

و على جانب ساحة قراند بلاس الاثرية المدهشة تتراقص الفتيات الرائعات لتلتقطهن الكمرات وهن ينشرن الفرحة وتعلو من فوقهن تماثيل القديس ميشيل وفارس المدينة والجميع يحفون المكان يستمتعون بضوء الشمس وسمفونيات التاريخ دون مواعيد تحدد لوت عيونهم او دون اغنيات تكتب سرا فى حضرتهم الجميع يغنون فى العلن بضوت واحد وبانغام متعددة ولحون متناسقة ومتناغمة وتبدو بروكسل مدينة لكل البشر مفتوحة نحو الحياة والطبيعة والمشاعر والحب والصور الرائعة فالمطر للجميع والحب للجميع والمدينة اجمل عندما نكتشفها وهى تنبض جمالا وروعة وو صوت القطار يطحن فى السكك الحديدية ومترو النفاق يلملم جناحية ويدخل فى انبوب السرعة والنسمة تتجدد وكل شيئ فى المدينة يتفتح بطريقته وبتألق حتى التماثيل الكبيرة لم تمل الانتظار على الساحات والمسافرون يودعون اقرانهم ويبدأون يوم اخر بينما المهاجرين الجدد يتكئون للأستراحة ثم يستمر المسير نحو معسكرات اللجوء فى الارياف البعيدة يسابقون الزمن لتنقضى

قصتهم مع المدينة والانوار تودع الجميل وهى مضيئة لن تنام رغم شلالات المطر التى تشغلها ليل نهار وتوقد خيوط من بلور متواصل بلا انقطاع وتستمر الرقصات تحت المطر نشيد ولوحة لا تنسى

بروكسل ٢٠١١ .٦. ٢٣

دمُوع الأرض السَّمراء

(١)

شلالات الأرق الطويل تحملني مجندلا بالأشجان حافي القلب. أتدثر بلهاث جرحي المستحيل، أواري ومض رحلتي المجهولة الشواطئ، والسنة الشجن الخرافي تثقب غشاء كلماتي القزحية المنحوتة تمثالا على صدر الرياح الاهليجية وشلالات الأمل المعبق بالأحلام وقصائد قوس قزح.

وتحت زخات مطر الأحلام المسافرة أفواج، تموء صورة الوطن القديم، في شكل جنائزي حزين، تلتقط أنفاس الشتات بشحوب وغموض من السواحل البعيدة ودموع القرى الساكنة تحت ضوء القمر، الملونة برحيق الحياة السيمفوني الرخيم والضباب المالح.

وهنالك عند اسداف الأرصفة الممتدة داخل البحر المترع بتراجيديا الأشجان ترقد خفقات الشموع، وفي القاع قوس قزح بحجم الدموع يرسمني بحسرة وانكسار كشبق الخريف بعيدا عن أجواء السافانا.

آه، عنوان وطني العنيد قصيدة منسوجة في سفر الحكايات العنيدة بحجم الرياح، والجرح الكبير يتمرجح بفقاقيع الأحلام الجدلية كالسراب يناديني بخفوت، والجزر الرملية الفاتنة المتربعة على رحم البحار العاتية تنازعني هويتي الدافئة وأبجديات قصائدي البدوية وترنيمة بكائي السري الحزين، والصحراء الواسعة أطلس في اضابير بلدي الخرافي.

آه، الأغنيات القديمة في أعماقي تتلوى والذكريات الرائعة المنقوش برحيق السافانا في دمائي، تنتظر الفارين من هنالك، من وهج الأحزان وقتامة المكان ولعاب السجان، بحثا عن رائحة الوطن السرمدي لينتهي بهم المصير المضرج بالفتور والنواح كبؤرة الخسوف المر، كمقصلة التلاشي المنتقاة من مفتاح الخارطة التائه في زحمة المستحلات.

(٢)

رحلة الأسماء الموعودة بدفء الأبنوس لم تعد تشفي داء التشرد، والملجأ لم يعد سوى منتدى حزين لداء الكوليرا والتفوئيد. هذه القصة المشرئبة بالنواح. هذه الحكاية المفقودة في كتاب العباقرة الصفوة، أصحاب السياط الجهنمية.

وعلى ذاك الشارع الطويل المعفر الذي حفرته الدبابات والمجنزرات ترقد أشلاء الحيارى ببؤس، يستنزفهم النبلاء

الجدد ليوقدوا الحزن والرعب والأسى في خلايا الجرح المترع بالمرارة والألم، المفطوم على محراب الصبابة وقوافي العشق العذري.

آه، مازالت الكلاب الكبيرة ذات القلائد ترقد.

دموع الأبجديّة ورائحةُ السافانا

هنالك اللوحة أبدية. هنالك القصة طويلة ومنسية. هنالك الدمعة أغنية. هنالك ألف أنشودة بالدموع مسقية. هنالك حليمة، ومريم، وبنات الحلة، بملامح رقصة ريفية. هكذا كانت الأرض السمراء تضم الأحباب. آه، وألف آه. انطفأت شمعة الحياة فى كل العيون بوجوم وسكون لتبدأ من جديد طواحين الألم.

تحت حبات الرمل البرونزي المترع بالذكريات البعيدة، ومع إشراقات مطر التضحيات وابتسامات الشمعة الملبدة بدموعها القديمة الجديدة الناعمة، نعم لقد أسدلت السماء ستارها فى ليل طويل ملقح بالشجون والحنين والصدى، و... و... و...

كل شئ تلاشى تحت وسادة الشمس المسافرة فى قاع البحر، ووراء الأمواج العاتية، وفي الغربة البعيدة وشهقات المهجر الموحش. ضاعت ملامح النشيد فى أطياف أغنية تسربت بعيدا فى رائحة الشلالات المضطربة، بلطف وسكون، وتدثرت بفقاقيع النيل القديم، والرياح الدافئة غمرتنا بالدموع السخية

الساخنة، تلك الدموع: دموع النيل الباردة، والمشهد متعرج بالصمت والهجير والدفئ. هنالك فى الذاكرة البعيدة دفئ النيل والتأملات البكر. آه.

منظر رائع ينام فى ذاكرة الحقول والبراري البعيدة، وأطفال القرى المرحون يوقدون ألف شمعة وسط الطريق. ببطء والخريف ينام فى عيون الجميع سنابل وقبلة ممزوجة بشوق الحبيبة الأبدية.

تلك رائحة الأمس المرهف بدعابات الوطن المسرج سرا وجهرا فى اسداف السافنا، حيث تبض الشمس عسلا وأنوارا من لبن ورحيق، وتتمرجح على حبال النيل الذهبية، والجبال الزرق المحفوفة الدخان، والغابات الخضراء المسكونة بالأمان، والأنامل السمراء المنقوشة بالحنان. آه. وآه.

كل شئ فى ذاكرة القرية البعيدة النائمة على ضفاف مهجتي يختزن لون الشمس ورائحة الأبنوس بتجل وحبور وصدى الأنغام ينساب دافئا فى قرى دارفور البعيدة، المعروشة بالرمال والصبر والتضحيات والسهول المبرقعة بالرصاص. ما اتعس لحن التشرد فى قاع الخريطة وأكوام الرمال الثقيلة! وما احلى النوم على الأرصفة عندما تغنى عصفورتنا البيضاء بعيدا عن الجدران! ليس لنا الآن مزمار نغنى به. آه.

القصة طويلة، تتلوى فى ضلوعنا، والكلمات سافرت عبر موكب الخريف ورائحة المطر المجندل صفحة فى سماوات كل عصفور، العصفور خرج من لب الحروف وقاموس الأبجدية، وأطفال القرية ما زالوا يتعلمون الحرف الأبجدى من صدمة البندقة على ظلال أشجار المانجو والباباى والدليب. كل أغنية هنا قصة وألف نشيد. وعندما باضت عصفورتنا على رموش القرى المرهقة المرتعشة كتب فى عمق جراحنا أن هذا اليوم عيد.

نعم القصة طويلة لكنها موعودة بالخريف والمطر والشجون والحنين والسكون والصلوات لجمال اللوحة الأبدية المنقوشة بقبلات حبيباتنا الرائعات. وألف صوت رخيم يتفرهد كالورد فى ذمة العاشقين ودموع الشموع الدافئة العطرة، بذكريات طفولة الموعد نقشت على محرابنا القديم العيد السعيد. نعم الموعد جميل من حيث سافرت الأشياء، ومن حيث ولدت القصائد من رحم القرية الأم. نعم، الأم البعيدة هنالك فى أجواء السافنا، وقداسة الوطن الجديد. نعم، الجديد بحفاوة المشهد.

لقد تعلمنا الغناء مثلما ولدنا يوما موشحين بالبكاء. هى صرخة الحياة. ولنا موعد مع رائحة المطر فى السافنا وفى

الجروف البعيدة وفى السهول المحفورة فى نبض كلماتنا و(رائحة الدعاش). هى القصة التى كتبت برموش جداتنا فى ميثاق الشرف. هى القبلة التى منحننا إياها حبيباتنا خبزة نـقتات منها قصائدنا المسافرة دوما فى القاع وغربتنا البعيدة بين الجدران.

كل شئ اليوم فى مدن بلادى الضبابية مسجل فى دفتر السافنا بقساوة المشهد. لم نتعود الوحل تحت طين الأبجدية وشطحات اليائسين، ولم نتوسل أحدا بصلواتنا ليهدينا بهجة العيد وقبلة الفرحة وطعم النشيد. لم نولد صغارا بحجم الخيانة، ولم نولد جنرالات كبارا لنعكر أغنيات القرية بالبارود والسياط المسمومة. القصة طويلة. القصة حزينة. القصة رائعة، لأنها تغنى بصمود، لأنها تحلم بالخريف والحب والسكون والفرحة وبالنشيد. إنها تتموسق من جديد نسمة باردة فى قمة هجير الصيف. مازلنا نحلم برائحة المطر وصبر أهل القرى الطويل. والحلم ما زال نبضا يسقى هذا العمر المديد. فى الحقول الواسعة الخضراء فى الجبال الرائعة ودهشة المنظر. والحلم جميل. مثل الخريف هنالك فى السافنا.

فى دارفور البعيدة. البعيدة. البعيدة. انتهى شكل الزمن لوحة مكسورة وحكايات مهجورة بكل اللغات والألوان والأشجان. وبكى الحالمون المسافرون دوما على ظلال مدينتنا

الخرساء المسرجة بالسراب، والموشحة بالدخان الشاحب، والدموع المثقوبة بالألم والذكريات المبرقعة براحة البارود، وأنات الجياع المتضورين على هامش الحروف يتفيأون بالصمت والحسرات العميقة، ينتظرون قطار الأطياف القادمة من شكل الزمن الاهليجى، ووهج الابجدية من وراء السراديب.

والليل الموحش اغلق أبوابه تحت سجع النجوم البعيدة الملبدة بالدموع، الملبدة بسهاد الجراح المسكونة بالصقيع. والرياح الممشوقة برائحة الغربة تتقفى آثار النظرات التائه وسط جبال الضباب الوعرة. وهدير البحر الهائج من أعماقه يخترق ذاكرة الأحلام، والناس هنالك على السفوح والسهول الواسعة يرحلون. يبكون. يتمازجون. يرتعدون. يصمتون. ينتظرون صلوات المتضرعين. وكل شئ هنالك موعود بالفرحة والخرافة. نعم، وكل شئ هنالك لعق مرارة المشهد وبؤس الأناشيد وتجرع الأحزان من جديد.

وصمتت القرى المتناثرة على السفح وعلى السهول الواسعة التي لم ترتو سوى من رائحة البارود والسنة الحريق وهتافات المفجوعين. والخارطة مشوهة هذا المساء بلعاب الكلاب المسعورة ودماء الهامش المفجورة.

البئر لم تعد تسقى سوى نعاج السلطان، وحزن المكان. القصة طويلة قرأتها بالمجان. كل شئ على الهامش يبكى. وكل شئ تحت حذاء السلطان محفور داخله إنسان. و... و... المشهد طويل والحزن كبير والقتل هنالك دعوة ونفير. و... و... و...

أُنشودة الأبنوس الدافئة

وثُلوج الشِّمال

السهول الواسعة المعطرة بالدماء الدافئة والممتدة على مد البصر بسطت اذرعها وصدرها برفق وحنان بنشوة دافئة، وتأملات عميقة، تداعب المسافرين في ذاكرة الرحلة الطويلة، وزخات المطر المتناثرة المنعشة، رسمت في الأفق لوحة متشابكة، كغابات الأبنوس المنسوجة بنعومة وتجلى، تستنشق رائحة دموع السافنا.

ترشف قبلات الأبنوس المتراقص وعبق الأطياف القديمة واشراقات السهول الخضراء البكر، والنسمات الريفية الهادئة تكنس رائحة أطياف الثلج القديم بعيدا، بعيدا، وقتامة الغربة المرهقة الشاحبة أضحت معلقة على جدران المسافة المثقوبة بالدموع والعناء وعلى ثنايا المحطات المهشمة بالأنين والسهاد الطويل وصخب القطارات الطويلة المتسربة في أعماق أطياف الليالي الثقيلة ووسط واحات الجليد وصقيع الشمال البارد.

والطيور المهاجرة المسكونة برائحة الخريف والسافنا وشبق الأبنوس هنالك أفردت أجنحتها في السماء، تطوق قوس قزح في رحلة الأحلام البعيدة والشمس الملبدة بالغمام، أغمضت عينيها باستحياء وأسدلت رموشها برفق. كأنها لم تكن، واطل قرنها كمعشوقة يائسة من زمن بعيد في عمق السراديب تترقب فارس الأحلام القادم من وراء الضباب، من حكايات وأساطير العصر الأول.

كل شيء هنالك مسكون بالغربة الباردة والذكريات الملتهبة، مسكون برائحة القراصنة، والبحر، مسكون بالتيارات الباردة المقوسة. كل شيء هنالك حاف، عار، جائع، يائس، محطم، مبرقع، مشتاق بنصف روح ليس له طعم.

كل شيء هنالك مكتوب لحن بارد في الأغنيات الكسولة، وفي قاع الخريطة تنام مدن بعيدة وقصائد محفوفة بالدموع الحزينة مغسولة بخمر الذكريات والأحلام وفي قاع وحل المسافة المعروشة بظلام الغربة والعذابات والقلب المرهف هائج بجنون السكون تتلوى أمواجه سرا في موكب الألم تتصادم في رحلة طويلة ومستمرة على مد البصر،

كل شيء هنالك يرتجف مسكون بالخوف الداخلي العميق، مشبع بالاهتزاز، المسافة بعيدة بعيدة جدا، والسهول الرخوة

مازالت أسراب من الأحلام ممتدة ترسم سرداقات الدموع السمراء المعشوشبة بالألم المقشرة بالصقيع ووحل الغربة الآسن، والقرى المسافرة مع أطياف الريح تطارد الأمواج الهادرة ورائحة السراب الخرافي البعيد، السراب الفنتازي المختلط برمال الصحارى البعيدة، القاحلة المحفورة في شرايين الأطياف والذكريات العنيدة، المنسية في دفاتر الرحالة وشبق الحبيبات وعيون الأبنوس وفاكهة الجغرافية المستحيلة، المنهكة في طواحين المكان، وأنياب الزمان والقصائد السمراء تتلوى بالصقيع والنكد المنسوج بهواجس الرحيل والمواعيد والبراري والأحلام المكسورة.

كل شيء هنالك سري غير مباح، سري مكبل محروم من الخريف، محروم من رائحة السافنا ونسمة الحروف، والشلالات الذهبية، وخرير الجداول الفضية.

كل شيء محروم من ظلال الأبنوس، من دمعة العيون السمراء من ضحكة الجبال الزرق من أصوات الوادي الأخضر، من الشواطئ الدافئة، والنخيل الباسق، والبساتين الرائعة، وحلم الأبجدية الأزلي، وكتاب الطفولة الأول، وموعد البهجة.

نعم مازال الجناح مكسورا. الأغنية طويلة. طول الرحلة والقصة كبيرة بحجم الجراح، والدمعة سخينة بلون الاتراح، والمسافة مضنية ومتعرجة بشكل النواح، ورسومات المشهد تعشق المطر والنسمة الدافئة، وأطياف السافنا والرموش السمراء والنهود الملبدة بوهج الصيف ورائحة الخريف هنالك

مدينةُ الأحلاَم والشُّجون

فى الأيام القديمة البعيدة كبعد المكان تلفُّنى ذكرياتى بلا وشم وبلا حقائب وبلا اقلام استطرد كل خيول قصائدى وكل قطارات احلامى وخفقات سهادى العنيد اتوسد بقيا عزلتى بوحشة وسكون بصمت يكسونى الملل والرتابة ولم اعد جزء من نصوص انتمائى للورد والرياحين ولم اعشق فى سرى حيث المطر فى قلبى توقف فجاءة كأنى لم اولد بعد جزء من همسات الايام المليئة بشبح المغامرة والصمود والتجلى والفضول المستمر وحيث اكون او لا اكون بعد ما انهيت دراستى الجامعية فى القانون بالعاصمة الليبية طرابلس كنت وجلا اتمشى اتفقد كل العناوين البعيدة والخبرات العميقة اتقفى اثر الاشياء ارنو لأعلى لا ارقص فى دائرة الخوف فقررت ان اواصل دراستى العليا فى القانون وقبل الالتحاق بالعمل فى مجال القانون كنت مهتما بمواصلة البحث والتنقيب عن المصير والهجرة وراء البحار لأكمال الدراسات العليا ومشت الظروف ان اقوم

بمراسلة عنوان احدى المؤسسات بمدينة سدنى بأستراليا القارة المحظوظة كما كنت اعتقد وكما سمعت عنها فى كثير من اخبار المارة والرحالة والمغامرون وكنت افكر واهم بسداد نفقات الدراسة والسفر الى ما وراء البحار والتى ستكون مرهقة لحد لم اعد احتمله وبما ان الدراسة ستكون باللغة الانجليزية لم اكن قلقا لانى لدى المام بها وقد قرأت كتابات الكاتب الجنوب افريقى آلان بتون، وشكسبير وبرنادشو فى الادب الانجليزى واعتقدت ان رائحة المغامرة والمتاعب والحياة الملوكية هى مزيج للخبرات لكن الحياة فى استراليا قد لا تختلف لشاب يافع من افريقيا تعود على الغوص فى الرمال والرماد والوحل وتسلق الجبال واللعب فى الترع الراكدة والمغامرة فى الادغال هى تجربة كافية كى لا ادخر الكباء ليوم الغربة المرتقبة ولم اكن اتخيل كيف تكون استراليا وماهيتها فقد ارسل لى القبول الجامعى من معهد لدراسة اللغات والادارة على ما اعتقد انه شمال مدينة سدنى وفى وقتها لم اعرف عن مدينة سدنى الكثير سواء انها مدينة استرالية بعيدة تختزن فى جوفها رائحة الاوقانيوس وتاريخ سكان استراليا الاصليون الابيروجونيز والحياة الجديدة فى اقصى الكرة الارضية ولكن المؤسسة التى كانت تقوم بتنسق عمليات قبول الطلاب

الاجانب خاصة القادمين من افريقيا والشرق الاوسط تتفنن بتجميل الحياة وتشجيع القادمين بالمزايا الجميلة والروعة المنقطعة النظير والسعادة الابدية والدفئ المتكامل فقد ارسلت لى خطابات تحدد مواعيد الدراسة والحياة الجامعية بفخامتها وتواضعها والسكن الجامعى والاجراءات الادارية ولمحات عن تاريخ استراليا والطقس الرائع والبيئة المتميزة والمتفردة والمدن النظيفة المرتبة الجميلة والراقية ومثاليتها وخاصة مدينة سدنى العاصمة التجارية ومن اشهر معالمها مبنى الاوبرا هاوس بشكله الهندسى المجنح الملفت للنظر حيث هنا قمة فنون العمارة والمناظر السياحية والحيوانات البرية خاصة شعار استراليا حيوان الكنغرو الذى اراه فى الصورة وهو واقف على رجليه يحمل ابنه على جراب بطنه بحكمة بالغة ومحيرة وهذه فطرة الاشياء هذه قصة قديمة مرت واصبحت من الماضى لكنها لم تدفن بفشلها ولم تغمر بتراكم الايام والاشهر حولها وانما هدات فى ثبات عميق .

وبيان ان التاريخ يعيد نفسه اتت الظروف ان اواصل دراساتى العليا فى مكن غير الذى سكبت فيه ماء عيونى ورسمت فيه بهو اغنياتى وعانقت فيه شكل المطر الخرافى وفى الوقت الذى سكنت فيه اشرعة رحلتى نحو الارض الجديدة

فى اقاصى اطراف العالم حطت بى رحال الايام ان لا اتخلى عن خوض غمار السياسة فى بلدى السودان واكتب فى الادب الشعر والقصص واهتماتى بالكتابة والعمل فى مجال حقوق الانسان وهذا سبب لى المتعب المؤلمة وحرمنى دفئ الايام الجميلة وحال بينى وبين البقاء مع عائلتى بامن وسلام وقد افتقدت اهلى كثيرا وغادرت بلدى مجبرا اتحسر وابكى فى سرى من اعماقى انزف بحرقة اعاتب البشر والشجر اخاطب البحر والسماء اتحدى صقيع الشتاء وقساوة الاحلام وهلوسة الليالى المعتمة ومرارة التشرد والتسول فى قاع الخريطة انظر عبر ثقب كلماتى لكل المدن الخرافية ولكل الجزر الساخنة ولكل الاعلام الممزقة ولكل الحيطان والجدران الصلبة كل شيئ امامى هو لوحة بلا منافس حتى رائحة الدموع وضوء الشموع والصلوات والخشوع وحتى ظلى من حولى رهيب ان يبقى بلا ملامح لابد ان يرحل وقد وحطت بى الرحال بالقارة الاوربية بمملكة بلجيكا ولم اكن ادرى الكثير عنها واستقر بى المقام بمدينة بروكسل العاصمة الجميلة التى سكنت فى اعصابى ورسمت فى جوفى بعض كلمات البقاء والصمود والتضحيات وعدم الانطفاء وشاءت المشيئة ان وازور بعض المدن البلجيكة فى شمال وجنوب بلجيكا فى زيارات خاطفة ولمناطق محددة

زيارة اصدقاء او معارف او مشاركة فى ندوة او منشط ثقافى ثم اعود لغرفتى الصغيرة ببروكسل اتوسد امتعتى وافكر فى المجهول بلا انقطاع لكن هذه المرة جاءت الدعوة والمشاركة مع منظمة الكتاب البجيك المعروفة القلم الفلمانى او بين فلاندر واستضافتى بشقة رائعة وجميلة ومنظمة ومرتبة فى الدور الثانى وقبل ان ارى الشقة كنت اجلس بمقهى رويال على المحطة القطار الرئيسية المعروفة بالسنرتال استيشن ومعى صديقى الدكتور محمد الغريانى مصرى هولندى الجنسية وقد كنت على موعد المنسق صديقى الرائع سفين ومعه والده كان يحاكينى مرة بالفرنسية بلطف وادب عال ومرة بالهولندية ومرة اخرى باللغة الانجليزية اذ ان السيد سيفن يعمل استاذ للغة الهولندية لتلعيم المهاجرين وهو صحفى ونحن فى محطة القطار قبل ان نتمتطى سيارة والده لفت انتباهى اننا سرنا عبر الممر المتتد بكشل مميز اعلى محطة القطار حيث ان المدخل باعلى المحطة هو يؤدى لمحلات الالماس وهذه المرة الاولى لى ارى محلات تجارة الالماس اعلى المحطة وعند وصولنا للمصعد الكهربائى الخلفى كانت يد والد المنسق سيفان تشير لى على اليمين هذه حديقة الحيوان الرئسية وكنت اتجاذب معه اطراف الحديث وتحركنا نحو جنوب المدينة على ما يبدو لى اذا لم اكن انا قد فقدت مؤشرات

الاتجاهات حيث شقت السيارة طريقها بتأنى وروية وغير مسرعة كنت اجول بخاطرى نحو الشمال والجنوب مرة تلو الاخرى اتفحص معالم المدينة ولقد لفت انتباهى ان هذه الميدنة نظيفة ومرتبة وتبدو حتى وصلنا لمقر اقامتى بشارع بروكسل الواقع بمدينة انتويربن بالقرب من مبنى المحكمة الجديدة وقد صعدنا حتى وصلنا للشقة مكان الاقامة وبعد ان اكملنا اجراءات السكن والتسليم والتسلم تركنى صديقى اسفين وغادر ليلتقى بعائلته وحيث جلست وحدى انظر عبر النافذة فأذا بى اجد نفسى اتخيل ان منظر المحكمة امامى هو يشبه ذاك المنظر القديم لمبنى اوبيرا هاوس الشهير بمدينة سيدنى الاسترالية التى سكنت فى ذاكرتى منذ مدة وبما اننى درست القانون انظر للمحكمة عبر النافذة فهل انا يا ترى فى غرفتى ام على شاطر البحر اتأمل الشكل الهندسى لمبنى المحكمة الجيدة ليبدو احيانا مثل السفينة الراسية على الميناء تترقب المسافرون للملاحة فى رحلة بحرية ممتعة تقود وهنا مرة اخرى اجد نفسى بمدينة انتويربن الميناء القديم الذى منه غادرت افواج من البشر للارض الجديدة وقد زرت الحوض المخصص لبعض السفن والمشهور بحوض بونابورت نسبة لبناء فى عهد نابيلون وها هى الذاكرة لم تتوه ما بين سدنى وانتويربن لتدق ناقوس للذكرى

والايام الماضية وتظل المدينة عامرة وبحركتها والاضواء ورائحة المطر واصوات النوارس وطيور البحر التى لم تغادر بعد، وغرقت فى لحظات خيالى مسافرا اتستنشق عبق،

مدينة الاحلام والشجون

تعطرنى بصباحات الايام الرائعة

و الشمس بخيالها السرمدى الشفاف

ترسمنى وشم فى الأفق

والنهار أرجوحة من عسل الندى

قولى من أنتِ أيتها المدينة الخرافية الدافئة

و الكلمات الرخوة من أعماق نبضاتك تنادينى

من وراء ومحض عينك الأبدية

أه... يا درة المرافئ والمدن العاشقة

اسقينى ملئ أيامك تخب من كأس النشوة

اسقينى انتماؤك للقمر وصدى السمفونيات العجيبة

و السماء الزرقاء تلهمنى فيك بلهفة

تحت وجنات المطر

اذوب واتوكأ على مسارات الروح ارقص معك

احمل قلبى كمشعل القداس

ونحن أنت ومن أنتِ حين يتسرب فينا سحرك

يا لك من رونق خرافى الجمال

و السفن عبر قنالك تنتظرنا سرا تحت رموش المسافة

نلتقى معا وراء حائط الشجن

والاغنيات تنساب كالشلالات

وهمس الماضى يستوحى معنا عبق الترانيم

والقلوب الصافية شمعة للوفاء

ونحن جدلية للامس العنيد

وانت سرب لاغنيات المطر والكلمات الناعمة

يا مدينة الرياحين الدافئة وفيثارة الشعراء

و الصبر وعد خرافى وكلماتنا عماد للروح والشجن

ونحن نلتقى سرا فى غابة الشعاع والبحر ونكهات القبل

وبينما انا ارنو بنظراتى وخيالى بروعة وتجلى استرسل مع زوارق قصائدى ورحلاتى وتجوالى فجاءة رن هاتفى المحول

لأجد احد اصدقائى ببروكسل يسألنى هل انت موجود بالمنزل ببروكسل ليقوم بزيارتى فقلت له لا كلا انا الان بمدينة انتويربن تحت ضيافة اتحاد الكتاب البلجيكيين الناطقين بالهولندية واسترسلت اشرح له المدينة وانطباعاتى نحوها وشكلها والمزاج العام وكانت مكالمة رائعة تحفة لانها جزء نبض المدينة .

المؤلف في سطور

- الدكتور الهادى أدم عجب الدور حاصل على الدكتوراه فى القانون الدولى وهو شاعر وكاتب سودانى من مواليد ١٩٧١ بمدينة مليط غرب السودان بولاية شمال دارفور.
- عمل فى حقل القانون مستشارا قانونيا لعدد من الشركات والمؤسسات بليبيا وتونس والسودان وتشاد.
- عمل متطوعا مع منظمة فليخيك وريك فلاندر البلجيكية فى بروكسل.
- عمل متطوعا مع جوزيفا فونديشن فى بروكسل.
- عمل مستشار متطوع بمفوضية العلاقات العربية الاوروبية فى بروكسل.
- عضو مجلس القضاء العربى الأوروبى لاهاى وبروكسل.
- عضو مؤسس للمنتدى الثقافى السودانى ببلجيكا.
- عضو مؤسس لمركز جنوب الصحراء ووسط إفريقيا للدراسات.

- عضو مؤسس لأتحاد الشعراء المهاجرين.
- عضو مؤسس لمجموعة قطار السلام العالمية المعروفة بيس بروفورمنس ترين التى تضم فنانين وشعراء وكتاب وفلاسفة اروبين وامريكان وعرب واسويين وافارقة وبلغت اكثر من ٨٠ دولة وقد دشنت بعض اعمالها بالبرلمان الاوروبى ببروكسل ومتحف الفنون الجميلة المشهور ببوذار ومناطق ثقافية كبرى فى اوروبا.
- عضو مؤسس للكنغرس العربى الاوروبى ببروكسل.
- رئيس ومؤسس للمعهد الافريقى الدولى للسلام ببروكسل.
- كتب الشعر والقصة القصيرة والمقالات بعدد من المواقع الألكترونية السودانية والعربية اجريت معه عدد من المقابلات الصحفية حول الشئون السودانية بالصحف السودانية مثل صحيفة القرار والمحرر وصحيفة رأى الشعب الخ.. والصحف العربية والدولية مثل صحيفة القدس اللندنية وصحيفة الواشطن بوست ونيورك تايمز وجريستين مونيتر سينس وبعض محطات التلفزة مثل قناة الجزيرة وقناة الحرة وقناة الأل بى سى اللبنانية وتلفزيون العالم والتلفزيون الصينى وقناة فضائية فنلندية وقناة الشروق السودانية بدبى وتلفزيون السودان وقناة الليبية

الفضائية وقناة الجماهيرية الليبية وقناة الام بى سى وتلفزيون انتويربن البلجيكى وقناة المقاومة الايرانية وبعض وكالات الانباء الدولية مثل وكالة رويتر للانباء ووكالة الصحافة الفرنسية وو كالة الشرق الاوسط للانباء ووكالة الانباء الصينية ومحطات الاذاعة مثل محطة الاذاعة الليبية ايف ام وهيئة الاذاعة البريطانية وراديو مونتكارلو وراديو فرنسا الدولى وراديو سنترال اف ام البلجيكى بمدينة انتويربن وراديو وتلفزيون لكسمبورج وراديو الكاثوليك الفرانكفونى فرنسا – بلجيكا ورايدو فنلندا واذاعة صوت المانيا دوتش فيلى، واذاعة عافية دارفور من واشنطن واذاعة راديو دبنقا من امستردام.

- تُرجمت له عدد من النصوص والقصائد للانجليزية والهولندية والفرنسية والالمانية والروسية والاوكرانية والتشيكية والتركية والسويدية والصينية ونشرت له عدد من القصائد والقصص بالمجلات الادبية البلجيكية المتخصصة الناطقة بالهولندية مثل مجلة خريك ومجلة كناك الواسعة الانتشار ومجلة بين فلاندرين السنوية المعروفة بالكتاب السنوى ومجلة الشعر الهولندية البلجيكية الناطقة باللغة النيرلندية.
- شارك مع اتحاد الكتاب البلجيكيين الناطقين بالهولندية

المشهور ببن فلارين فى عدد من الاعمال والقى عدد من المحاضرات حول السودان وحقوق الانسان فى افريقيا والدول الاسلامية على طلاب المدارس الثانوية الناطقة بالهولندية بمدينة بروكسل واقليم الفلندرين البلجيكى وقام بألقاءات شعرية على الطلاب باللغة العربية ومترجما باللغة الهولندية شارك بقراءات شعرية بعدد من الاحتفالات والمناسبات والمهرجانات باللغة العربية ومترجما بالانجلزية والهولندية والفرنسية.

- شارك بورشة عمل حول المواطنة بمشروع سيتيزن وكيكين اند الايف مع متحف الفنون الجميلة ببروكسل المشهور بمتحف البوذار ومتحف البليى فو وبعض المرافق الثقافية بمدينة خنت البلجيكية وبمدينة لوفين البلجيكية شارك بورشة عمل مع اكاديمية اندرليخت للفنون بمدينة بروكسل ومنظمة سيتزينا ببروكسل وشارك بورشة عمل مع اكاديمية مالو للفنون ببوركسل وشارك ببرنامج ديوان لمجاراة الشعر التوثيقى للشاعر الالمانى قوته والشاعر الفارسى الايرانى حافظ بمدينة لوفين مع عدد من الفنانين بكل من مصر وايران والمانيا وبلجيكا والمكسيك والبرازيل وفرنسا شارك ببرنامج المركز الثقافى بمدينة منن بغرب بلجيكا مع عدد من الشعراء والفانين من المغرب ومالى

وهولندا وغينيا وبلجيكا والكاميرون الصين وتركيا والسنغال و شارك بمهرجان الشعر الدولى المشهور بفيثارة المهجر عام ٢٠١٠ مع عدد من الشعراء من روسيا والبرتغال وفرنسا وبلجيكا السويد وشيلى والماينا وبلاروسيا ولتوانيا ولاتفيا واوكرانيا وامريكا والهند.

- شارك بعدد من الافلام مثل الفلم الامريكى الوثائقى حول دارفور اخراج شان بيرو وديفيد ماراتولس وشارك بالفلم البلجيكى حول الهجرة اخراج لوران ليكر.
- شارك فى المنصة للتعليق الفلم المكسيكى الامريكى حول الهجرة المشهور ب هوس ديانى كريستال معلقا مع مشاركين من منظمة الهجرة الدولية والمفوضية السامية للاجئين التابعة للامم المتحدة ومنظمة سينما الامم المتحدة.
- له ديوان شعر صدر بالقاهرة من دار المحروسة باسم دموع الزنبقة العذراء وله عدد من دواوين الشعر تحت النشر على سبيل الحصر تآملات فى اعماق الجرح، ما احلى النوم على الارصفة، دموع على المطرقة، حصاد الدموع النية، الابتسامة الزابلة، نحن ابناء الشمس والابنوس، شهقات القدر ومواويل السحر، جراح الاسى واشجان المساء، دولة الياسمين. حقول الانسان بين العولمة والارهاب. وبعض البحوث عن النمذجة السودانية.

- عمل ناشط حقوقى ومارس العمل السياسى وشغل منصب الامين العام لجبهة القوى الثورية المتحدة والمنسق العام لتحالف غرب السودان وكان عضوا بوفد المفاوضات السياسية لحل قضية دارفور بمفاوضات سرت بليبيا ٢٠٠٧ ثم مفاوضات الدوحة ٢٠٠٩ الى ٢٠١٢ شارك فى عدد من ورش العمل فى اريتريا مع مركز القرن الافريقى لبناء القدرات وروشة عمل بجنوب السودان مع لجنة دارفور المشهور بتسك فورس دارفور، ومركز الحوار الدولى الانسانى بجنيف، ورشة عمل حول رفع قدرات المفاوضين مع البنك الدولى وورشة عمل مع جامعة جورج مادسون الامريكية والجامعة الامريكية بواشنطن وجامعة سيينا بأقليم توسكانا الايطالى ومعهد الابادة الجماعية، ورشة عمل بجامعة بروكسل الحرة يو ال بى، وجامعة لوفين الجديدة البلجيكية بولونيا وورشة عمل مع المحكمة الجنائية الدولية بالتعاون مع اتحاد دارفور ببلجيكا وجامعة بروكسل الحرة، شارك بعدد من المؤتمرات بالبرلمان الاوروبى ببروكسل حول حقوق الانسان فى العراق وايران وسوريا حضر عدد من المؤتمر حول حقوق الانسان بباريس شارك بعدد من السمنارات فى مصر واديس ابابا وكمبالا ونيروبى وتشاد وليبيا وايطاليا وفرنسا وبلجيكا وهولندا.

- شارك فى بنصوص وقصائد فى ٣٠ كتاب انطلوجيا مع شعراء وكتاب عالميين وبلغات متعد.
- عمل ناشط حقوقى ومارس العمل السياسى وشغل منصب الامين العام لجبهة القوى الثورية المتحدة والمنسق العام لتحالف غرب السودان وكان عضوا بوفد المفاوضات السياسية لحل قضية دارفور بمفاوضات سرت بليبيا تحت رعاية الامم المتحدة والاتحاد الافريقى عام ٢٠٠٧ ثم مفاوضات الدوحة ٢٠٠٩ الى ٢٠١٢ شارك فى عدد من ورش العمل فى اريتريا مع مركز القرن الافريقى لبناء القدرات وروشة عمل بجنوب السودان مع لجنة دارفور المشهور بتاسك فورس دارفوردة.

مؤلفاته

- حصاد الدموع النيئة.
- ما أحلى النوم على الأرصفة.
- دموع الزنبقة العذراء.
- عصافير تحت الرماد.
- تأملات فى أعماق الجرح.
- دولة الياسيمن.
- جراح الأسى وأشجاء المسا.
- شهقات القدر ومواويل السحر.
- الابتسامة الزابلة.
- دموع على المطرقة.
- و عدد من البحوث وأوراق العمل.

الفهرست

الإهداء ٧
وأنا وحبيبتي لوْنان بلونِ قوس قزح ٩
أكتبيني نشيداً للأحلام والإنسانية ١٩
نحن والْقاع ٢٣
إيقاعات يومٍ على الرِّمال ٢٦
رمْشة مِن الماضي ٣١
عنوانٌ مجْهول ٣٦
مدينة الشَّجن السِّرّي ٤٣
القصة عنيدة أيُتها الأرضُ السَّمراء ٥٠
حلم العنْقاء البْدَوِيّة ٥٤
الرَّقمْ ١٧ ..... ٥٩
وهْج الفانْتَازيا ٦٩
أغنيَّات الدموع الشَّاحبة ٧٣
بُكائيات على خطِ النَّار ٧٧

رقصَات تحت الْمَطر ٨٠
دمُوع الأرض السّمراء..... ٨٤
دموع الأبْجديّة ورائحةُ السافانا ٨٧
أنشودة الأبنوس الدافئة ٩٣
وثلوج الشّمال..... ٩٣
مدينةُ الأحلاَم والشّجون ٩٧
المؤلف في سطور ١٠٧
مؤلفاته.....١١٤